

كتاب / حتى لا تغرق السفينة

المؤلف / الشيخ سلمان بن فهد العودة

الفهرس

- 1 مقدمة
- 2 المقياس الذي يعرف به المعروف والمنكر
- 3 الأمر والنهي ضرورة بشرية
- 4 لا يخلو مجتمع من منكر
- 5 أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- 6 العقوبات والآثار المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- 7 حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- 8 مراتب الإنكار
- 9 قضية الإنكار باليد
- 10 وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- 11 من الذي يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- 12 آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- 13 قضية المصلحة والمفسدة
- 14 من أخطاء الناس في قضية المصلحة والمفسدة
- 15 مهمة الشباب في ذلك المجال
- 16 المرأة ومقاومات المنكر
- 17 معوقات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- 18 نماذج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله - تعالى - وسلم عليه، صلاةً وسلاماً دائمين إلى يوم الدين. أما بعد: فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام، ودعامة راسخة من دعائم المجتمع الرباني، دلت على ذلك النصوص، وشهد به التاريخ، ونطق به الواقع. والأمة اليوم تحتاج إلى إحياء تلك الشعيرة، وتقوية تلك الدعامة، لتنفض عنها بذلك ما علق بها من الغبار الذي أثاره عليها الكيد الخارجي والداخلي، الذي لم يكن ليفعل فعله لولا انحسار المفهومات الإسلامية لدى الأمة، وبعدها عن دينها. والمتصدي لبعث ما اندثر من تلك الشعيرة، ولتقوية ما بقي منه؟ يحتاج - بلا ريب إلى فقه فيها، ليسير على هدى ونور، يجنبه الزلل والنشاط، ويبصره بالسبل المثلى لأداء تلك الرسالة الجليلة والمهمة الشريفة. من هنا كانت كتابة تلك السطور، إسهاماً في تجلية ذلك الفقه، وإضاءةً للطريق، وتنبهياً إلى المحذورات، وإزالةً للمعوقات.

سلمان بن فهد العودة

المقياس الذي يعلم به المعروف والمنكر

المعروف مأخوذ من (المعرفة)، وهي في أصل اللغة العربية: اسم لما يعرفه القلب ويطمئن إليه، ويسكن إليه النفس. ولذلك سمي معروفًا. والمعروف شرعاً: اسم جامع لكل ما يحبه الله-تعالى، من طاعته، والإحسان إلى عباده. والمنكر في اللغة: اسم لما تنكره النفوس، وتنبو عنه، وتشمئز منه، ولا تعرفه. فهو ضد المعروف.

وهو في الشرع: اسم جامع لكل ما عرف بالشرع والعقل قبحه، من معصية الله-تعالى وظلم عباده.

وبناءً على هذه التعريفات يتبين لنا الأمران التاليان:

الأمر الأول: أن المقياس في معرفة المعروف والمنكر ليس هو عرف الناس، وتقاليدهم وما شاع بينهم، فإن عرف الناس متقلب، إذ قد يعرفون اليوم شيئاً وبالقونه وبعنادونه، ثم عدواً بالقونه ويعلمون به. فالمقياس في تجديد المعروف والمنكر هو الشرع، وليس العرف. وكم من معروف جرى في أعراف الناس إنكاره!!

أرأيت - مثلاً إعفاء اللحى الذي أمر به النبي، صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي هريرة وابن عمر وغيرهما في الصحيح(1)؟! أرأيت كيف يصح ذلك المعروف في بعض المجتمعات أمراً منكراً، يشيع ضده، ويغدو الإعفاء مستغرباً، لم يعتده الناس، ولم يألفوه!!؟

أرأيت تقصير الثياب ورفعها إلى ما فوق الكعبين، أو إلى منتصف الساق، أو إلى مادون

الركبة في حق الرجال، ذلك الأمر الذي ثبت في الشرع، بدلالة عدة نصوص،
منها قوله، عليه الصلاة والسلام، : " ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار" (2)؟!
أرأيت كيف أن كثيرا من المجتمعات لا تعرف هذا الأمر، وإنما تعرف إرخاء الثياب وإسبالها
لدى الرجال، وتقصيرها وتشميرها لدى النساء اللاتي أمرن بإرخاء ملابسهن؟!
أرأيت كيف يحدث هذا في تلك المجتمعات؟! وكيف أنهم إذا رأوا رجلاً قد رفع ثوبه إلى
نصف الساق أو حوله، طفقوا ينظرون مليا باستغراب إلى ذلك الرجل، ويتغامزون،
وقد يتضحون؟!!

أرأيت كيف صار هذا المعروف في الشرع منكرا في بعض الفئات؟! أرأيت احتجاب المرأة،
الذي عرف بالشرع قرآنا وسنة؟! أرأيت كيف أن بعض المسلمين في بعض المجتمعات قد
يجهلون ذلك المعروف، فإذا رأوا امرأة متحجبة مستترة، ضحكوا منها؟! وكيف أن بعضهم
ربما قال: ما شأن هذه المرأة كأنها خيمة تمشي!! وكيف قال آخرون: إنها إنما تسترت
دميمة، فتريد أن تخفي قبحها!!

وكم رأينا في بلاد تنتمي إلى الإسلام أن اللباس الرسمي في المدارس وغيرها للذكور هو
"البنتلون"، الذي ينزل تحت الكعبين، في حين أن لباس البنات الرسمي هو شحج إلى
الركبة أو فوقها بقليل! فيا للعار!

وعلى الضد من ذلك، كم من منكر أصبح معروفاً مألوفاً في بعض المجتمعات:
فالغناء - مثلا- منكر واضح، ولكن حين يقوم امرؤ ببيان تحريمه، ويذكر الأحاديث الصريحة
في ذلك، تجد كثيرا من الناس يفتخرون أقواهم، ويشخصون أبصارهم، ويأخذ منهم
الاستغراب مأخذاً عظيماً، ولسان حالهم يقول: كيف يكون حراماً هذا الغناء الذي نسمعه
في الإذاعات، والتلفاز، وأشرطة التسجيل؟! - وربما يسمعون من بعض المنتسبين إلى
العلم من بيحه- كيف يكون حراماً؟!!

هكذا يتعجبون، ولا يقع في أذهانهم أنه منكر، لأنهم ألفوه، وسكنت إليه نفوسهم، فصار
عندهم معروفاً وهو في الشرع منكر.

والربا- الذي شاع بين المسلمين، في البنوك والمصارف والمؤسسات، حتى لا يكاد يخلو
منه إلا القليل، وأصبح الأمر كما أخبر النبي، عليه الصلاة والسلام، في الحديث الذي رواه
البخاري: "ليأتين على الناس زمان، لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام" (3)

أرأيت حين يتحدث ناصح عن تحريم ذلك المنكر العظيم، أو عن تحريم بعض صورته الشائنة
عند الناس، كيف تجد كثيرا منهم يفاجا ويستغرب؟! بل ربما رمى بعضهم ذلك الناصح
بالعظائم لأنه يستنكر أمرا عرفوه وألفوه واطمأنت إليه قلوبهم، فصاروا يرونه معروفاً
وهو في الشرع منكر قبيح.

مثل ذلك الصور- وخاصة الخليعة - من صور النساء الغائبات التي انتشرت بين المسلمين
اليوم، عبر الشريط والكتاب والمجلة والجريدة وغيرها، تلك الصور التي أصبحت تقابل
الناس في البيت والسوق والطارئة والمكتبة، وفي كل مكان.. حين يألف المرء رؤيتها
ويعتادها، تصبح في نظره عادية مستساغة، فإذا سمع من يقول: إن النظر إلى صور
النساء في المجلات والكتب والأفلام وغيرها حرام ومنكر، فإنه يستغرب، ويقول: هذا
مسكين، الناس اليوم يعانون من النظر إلى الفواحش من المشاهد الجنسية الهابطة التي
تقضي على الحياء، وهذا المسكين مازال يتحدث عن تحريم النظر إلى الصور!!
هكذا تصبح بعض المنكرات معروفاً، بسبب الذبوع والانتشار والإلف والاعتیاد، عند كثير من
الناس.

لكن عرف الناس لا يغير الشرع، وإنما العبرة في التحسين والتفحيح بالشرع، والعقل
الصحيح، والقطرة السليمة، وهما ل يمكن أن يعارضا الشرع في ذلك.

الأمر الثاني: أن الأصل في المجتمع المسلم أنه يعرف المعروف ويفره ويرضاه ويأمر به.
وأنه ينكر المنكر ويأباه وينهى عنه.

فإذا أردت أن تقف على مدى سلامة مجتمع ما، أو فساده، فطبق عليه هذه القاعدة، فإن
وجدته ينفر من المنكرات ويحاربها فهذا دليل على سلامته في الجملة.

وإن وجدته يتقبل المنكرات ويتشرب بها فاعلم أنه مجتمع منحل.

ولذلك كان أسلم المجتمعات وأحسنها وأنقاهها هو مجتمع الصحابة - رضي الله عنهم، إذا
كانوا يعرفون المعروف، وينكرون المنكر، ولهذا قال عبد الله بن مسعود في الأثر الصحيح
الذي رواه الحاكم وغيره: " ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون
قبيحاً فهو عند الله قبيح".

ثم ضرب لذلك مثلا، وهو أن الصحابة اتفقوا على اختيار أبي بكر - رضي الله عنه - للخلافة،
فهذا الاتفاق على ذلك الاختيار يدل على أنه أمر يحبه الله ويرضاه، ولذلك أصبح من جملة
عقائد أهل السنة والجماعة تفضيل أبي بكر على من عداه من الصحابة، والإقرار بأنه أول

ال خلفاء الراشدين، ومن بعده عمر، ثم عثمان، ثم علي - رضي الله عنهم أجمعين.

ولهذا أجمع المسلمون على قبول إجماع الصحابة، وعلى أنه حجة، فإذا اتفق الصحابة -
رضي الله عنهم - على أمر، أصبح المسلمون من بعدهم متعبدين بذلك الأمر.

وإجماع الصحابة - متى ثبت وضح وتحقق - من الأدلة الشرعية، لم يخالف في ذلك أحد من
المسلمين، ولذلك كان الإمام مالك - رحمه الله - يأخذ بعمل أهل المدينة، فما وجد عليه

عملهم في القرن الأول، عدّه من ضمن الأدلة الشرعية، وهذا أصل خاص بالإمام مالك.

وكان - رحمه الله - يفسر ذلك بأن عمل أهل المدينة إنما هو على النبوة، أما عمل الأمصار الأخرى فإنه على أوامر الملوك، كما ذكر ابن عبد البر وغيره. وإذا أردت أن تطبق القاعدة المذكورة أنفاً على المجتمعات الإسلامية اليوم، وجدتها - بلا شك - تتفاوت تفاوتاً كبيراً، ولكن يغلب على هذه المجتمعات هنا - في الجملة - أنها تتقبل المنكرات، وتألفها، وتنتشر بينها بسرعة.

فما أسرع ما تنتشر الأزياء الأجنبية في أوساط نساء المسلمين، إذ بمجرد ما تظهر مغنية أو ممثلة أو عارضة أزياء بزيٍّ من الأزياء، فسرعان ما تجدهن يتبارين ويتنافسن على تقليده.

وما أسرع ما تغشوا تسريحة معينة للشعر بين المسلمات بمجرد ما يرين مغنية أو ممثلة أو فاجرة تتزين بها.

وما أسرع ما يشيع بين شباب المسلمين كثير من الطواهر المنحرفة، تقليدًا لشباب الغرب، سواء في الملابس، أو في كيفية الشعر، أو في مظهر السيارة، أو في غير ذلك. إن تلك الطواهر الغربية التي تشيع بين شباب المسلمين إنما رأوها عند غير المسلمين، فأخذوها عنهم، سواء حين يسافرون إلى تلك المجتمعات، ويشاهدون تلك الطواهر عياناً، أو حين يشاهدون الأفلام والمسلسلات التي تعرض الأوبئة الموجودة في بلاد غير المسلمين.

وإن في تلك القابلية والطواعية لتقليد الكافرين في منكراتهم لدليلاً واقعياً واضحاً على الفراغ الكبير في عقول وأرواح كثير من المسلمين.

(ومع ذلك)

ومع ذلك فإن هذه المجتمعات لا يمكن أن يقال: إنها مجتمعات جاهلية مطلقاً - كما يقول بعض العلماء والمفكرين من المسلمين - لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أنه لا يزال في المسلمين من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن ذلك بيانه صلى الله عليه وسلم لمعنى قول الله تعالى: (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) {سورة الأعراف، الآية: 181} فقد بين عليه الصلاة والسلام تلك الآية في أحاديث كثيرة، منها الحديث المتواتر الذي أخبر فيه أنه "لا تزال في هذه الأمة طائفة منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من

خالفهم (4) وإنما سماها منصوره، لأنها مجاهدة، تجاهد على أمر الله، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والنصر من ثمرات الجهاد.

إذن لا يمكن القول بوجود جاهلية مطلقة في الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، في أي زمان، إلا قبيل قيام الساعة، حين يبعث الله - تعالى الريح الطيبة، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان إلا قبضته، وحينئذ لا يبقى إلا شرار الناس، يتهارجون تهارج الحمرة (5). وأفضل إنسان حينذاك من إذا رآهم يفعلون الفاحشة على قارعة الطريق قال: لو اعتزلتم الطريق (6)!! وهؤلاء تقوم عليهم الساعة.

وهنا سرٌّ عظيم، وهو أن الله تعالى أنزل القرآن وبعث الرسل وأوجد الكعبة، وأبقى الطائفة المنصورة، لتحقيق الحجة على الناس وإقامة الدين والشعائر، فإذا تعطلت منافع هذه الأشياء أذن الله بزوالها.

وحينئذ يبعث الله ذا السويقتين من الحبشة، فيهدم الكعبة، ويقلعها حجراً حجراً، ويستخرج كنزها (7) ولا يعود هناك من يحج أو يعتمر أو يصلي إلى الكعبة، ويرفع الله القرآن من المصاحف وصدور الرجال، حتى لا يبقى في الأرض منه آية (8)، ويبعث الله عز وجل ريحاً طيبة، فتقبض أرواح المؤمنين الأبرار بالمعروف الناهين عن المنكر، لأنه لم يعد هناك من يستجيب لهم. وبعد ذلك تقوم الساعة.

أما قبل ذلك الحين فلا يزال في الأمة من يصيح لصوت النذير، ويرق لداعية الحق، ويسلس قيادة للخير، قل هؤلاء أو كثروا، ولذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الغبراء في الحديث الصحيح المعروف، وذكر من صفتهم أنهم:

"أناس صالحون، قليل في أهل سيء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم" (9)

إذن ما دام هناك دعاة إلى الحق، أمروا بالمعروف، ناهون عن المنكر فهناك من يدعون لهم ويطيعهم، ويستجيب لداعيهم، فما أعظم عدل الله، وما أوسع رحمته!

الهوامش

1 - انظر مثلاً البخاري (5553) و مسلم (259)

2 - رواه البخاري (5450)

3 - البخاري (1977)

4 - رواه البخاري (3441) (3442) و مسلم (1921)

5 - مسلم 2937

6 - مستدرك الحاكم 3/343

7 - انظر: البخاري 1514 و مسلم 2909 و مسند أحمد 2/291

8 - ابن ماجه 4049 و الحاكم 4/473

9 - انظر في تخريج الحديث وروايته وشرحه كتاب "الغبراء الأولون" للمؤلف ص 37

الأمر والنهي ضرورة بشرية

الأمر والنهي فطرة في نفس كل إنسان، حتى لو كان يعيش منفردا معتزلا الناس فلا بد أن تأمره نفسه وتنهاه، فإما أن تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، أو على الضد من ذلك تأمره بالمنكر وتنهاه عن المعروف، أو تأمره بخليط من هذا وذاك، وتنهاه عن مثله. ولذلك قيل: نفسك إن لم تشغلها بالخير، شغلتك بالشر.

وما دام الإنسان الواحد المنفرد يتعرض للأمر والنهي، فأولى بالمجتمعين أن يكون بينهم أمر ونهي، سواء كانوا اثنين، أو أكثر من ذلك بقليل، أو مجتمعا كاملا، أو أمة. بيد أن هناك ثلاث حالات للمجتمعات في مجال الأمر والنهي:

الحالة الأولى: أن يتأمروا بالمعروف، ويتناهوا عن المنكر، وهذه هي الحالة التي وصف الله تعالى بها المؤمنين فقال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) {سورة آل عمران، الآية: 110} وقال سبحانه (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) {سورة التوبة، الآية: 71}.

الحالة الثانية: أن يتأمروا بالمنكر، ويتناهوا عن المعروف، وهذه حال المنافقين (والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف) {سورة التوبة، الآية: 67}.

وهنا وقفة مع سر بلاغي في الآيتين السابقتين، حيث قال الله تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)، وقال سبحانه: (والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض)، وقد يتبادر إلى الذهن أن يكون التعبير: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم من بعض"، و"والمنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض"، لأن علاقة المؤمنين بعضهم ببعض أمتن وأقوى، فيعبر معها بـ "بعضهم من بعض"، ويعبر مع علاقة المنافقين بعضهم ببعض بـ "بعضهم أولياء بعض".

والسر في هذا التعبير القرآني - والله أعلم أن علاقة المؤمنين بعضهم ببعض علاقة اتفاق على الدين الذي يدنون به، ولذلك يتوالون فيه، وليست علاقة تناصر على الباطل. أما المنافقون فهم لا يتوالون من أجل دين أو عقيدة، وإنما يتوالون ويتناصرون على الباطل، فكلما ذهب بعضهم إلى شيء وافقهم الآخرون وناصروهم، مهما كان ذلك الشيء.

الحالة الثالثة: أن يتأمروا ببعض المعروف، وبعض المنكر، ويتناهوا عن بعض المعروف، وعن بعض المنكر، فيقع منهم حق وباطل، ويلتبس هذا بذاك. وهذا هو حال المقصّرين والعصاة والمسرفين على أنفسهم.

وبناء على ما سبق نعلم أن المجتمع إما أن ينتشر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ينتشر فيه الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، أو يكون خليطا من ذلك.

وانحسار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمع من المجتمعات ذو خطورة مضاعفة، على خلاف ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، فإن بعض الناس إذا رأوا غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ضعفه في مجتمعات المسلمين اليوم ظنوا أن المشكلة هي فقط أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد زال أو ضعف.

والواقع أن المشكلة أبعد من ذلك وأكبر، فإنه إذا ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قوي الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، فالمصيبة مضاعفة.

وهذا أمر يشهد له الواقع. وإذا أردنا أن نمثل لذلك فلنأخذ مثلا وضع الفتاة المتحجبة المتسترة في بعض مجتمعات المسلمين التي يشيع فيها التبرج والسفور، إننا نجد تلك الفتاة تعاني معاناة شديدة من الكلام والنظرات، سواء من الأيوين أو من الزميلات، أو من القربيات، أو من غيرهن.

وذلك لأنها تسبح ضد التيار، إذ المنكر له قوة في ذلك المجتمع لأن المعروف فيه ضعف. فصار اتجاه المجتمع يضغط بشدة على كل من يخالف مألوفاته وعوائده مخالفة شرعية، ومن العجيب أن ذلك المجتمع يتفهم ويتقبل من يخالفه إلى تقاليد الأمم الكافرة وعوائدها ويعد هذا ضربا من التقدم و"التحضر" و"المعاصرة" وهكذا يصبح المعروف منكرا، ويصبح المنكر معروفا! إذن فوضع المجتمعات لا يقف عند حد، فإما أن يهيمن الخير والمعروف، فيستخذى المنكر، ويستنسر ويستخفي لأن القوة الاجتماعية والسلطة

السياسية تقاومه وتحاربه، وإما أن يسيطر وينتفش ويستعلي المنكر، فينحسر المعروف، ولذلك شرع في الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الهُوَامِش لا يوجد

لا يخلو مجتمع من منكر

وها هنا أمر لا بد من ملاحظته وهو أن وجود بعض المنكر في المجتمع الإسلامي على وجه الخفاء والقلّة أمر طبعي لا بد من حدوثه، ولم يسلم من ذلك حتى مجتمع الجيل الفريد، صحابة الرسول، عليه الصلاة والسلام، فقد كان في ذلك المجتمع منافقون، والمسلمون أنفسهم وقع من بعضهم شيء من المعاصي، وفي الصحيحين عدة قصص من ذلك، مثل قصة ما عز بن مالك الأسلمي رضي الله عنه الذي وقع في الزنا، فجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام، نادماً تائباً إلى الله فقال له: يا رسول الله زنيت، فطهرني، فيعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يزال ما عز يردد على النبي صلى الله عليه وسلم،

اعترافه بالزنا عدة مرات،

حتى أقام عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام حد الزنا(10)

ومثل تلك القصة قصة الغامدية التي جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، تشهد على نفسها بالزنا، وتطلب أن يقيم عليها الحد، ولما رأت أنه يريد أن يردّها قالت: لعلك تريد أن تردني كما رددت ما عزأ، والله إني لحيلى من الزنا، فيأمرها الرسول صلى الله عليه وسلم أن تذهب حتى تلد. وتذهب وتفضي مدة الحمل كلها وحرارة الندم تأكل قلبها. وتأتي بعد الوضع إلى النبي، عليه الصلاة والسلام، ليقيم عليها الحد، فيأمرها أن تذهب حتى تغطم ولدها. وتمضي مدة الرضاع كلها وقلبيها لا يزال يفضاً حياً يتفطر حسرة. ثم تأتي بعد فطام الصبي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعها الصبي وفي يده كسرة خبز، لتؤكد للنبي صلى الله عليه وسلم أن ولدها أصبح غنياً عن رضاعها، فيأمر النبي عليه الصلاة والسلام برجمها (11).

هكذا وقع في مجتمع الصحابة الأظهر شيء من المنكرات، لكنها حالات فردية مستترة مستخفية، وكانت ضمائر الذين يتلون بشيء من هذه المنكرات حية بقطعة، فما أسرع ما يقودهم خوفهم من الله إلى التوبة النصوح الصادقة، بدون أن يحتاجوا إلى رقابة أو متابعة خارجية، ولذلك ذكر النبي، صلى الله عليه وسلم أن ما عزأ مثلاً تاب توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم.

إذن فمجرد وجود معاص قليلة مستخفية في المجتمع الإسلامي أمر لا مناص منه، ولا يفح في سلامة المجتمع.

وهذا يشبه إن أردنا أن نشبه بما يطلقه الأطباء والمراقبون الصحيون على مجتمع ما حين يصفون مجتمعاً من المجتمعات بأنه سليم صحياً، فهل يقصدون أن جميع أفراد هذا المجتمع أصحاء تماماً؟! كلا.. إنما يقصدون أن الأمراض العامة، والأوبئة الفتاكة والمعدية لا يوجد في ذلك المجتمع، أما وجود حالات مرضية فردية فأمر طبيعي. لكن الأمر الخطير القادح في سلامة المجتمع هو أن يعلن أصحاب المنكر منكرهم، ولا يستحيوا من إظهاره، إذن إن هذا يدل على هيمنة المنكر وأهله، وضعف المعروف وأصحابه.

إن هذا يشبه ذلك المجتمع الذي تفشت فيه جرثومة الوباء فأصبح الناس يستنشقونها مع الهواء، ويشربونها مع الماء، ويتعاطونها مع الغذاء، فلا يكاد يسلم منها إلا أقل القليل. وهذا هو الشأن في المجتمعات التي تمكن للفساد، وتحمي الرذيلة، وتضع إمكاناتها المادية والمعنوية غطاء قويا للمنكر، تعاقب من ينكره ولو بلسانه بقوة وحزم، وتحاصر الناس بالمنكر في أماكن تجمعهم، وأسواقهم، ومنتدياتهم، بل وفي عقر بيوتهم، حتى ينسلل المنكر إلى "غرفة النوم" أو إلى "مهاجع الأطفال" وما أخلق المؤمن بالصبر حينئذ .. إنه لصبر الجبال!

الهوامش

10 - البخاري (5271) و مسلم (1691) و (1695) ورواه أيضا أحمد في المسند (2/453)

11 - مسلم 1695 و 1696

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تبرز أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمة المحمدية من عدة نواح، وبموجب أسباب مختلفة، لعل أهمها:

1 - أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبب خيرية هذه الأمة، وهو من خصائصها وميزاتها التي من الله تعالى عليها بها من بين سائر الأمم، قال عز وجل (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) {سورة آل عمران، الآية: 110}.

وقال جل وعلا:- (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (سورة التوبة، الآية: 71) هذه هي صفة المجتمع المسلم وميزته التي جعلت هذه الأمة في جبين الدهر، وتاجاً يأتلق على مفرق التاريخ.

أما المجتمعات الجاهلية الكافرة فديدنها الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف عبر تاريخ البشرية الطويل، وأبرز شاهد على ذلك: المجتمعات المعاصرة التي ارتضت الكفر والضلال، فإن تلك المجتمعات اليوم تحارب الفضيلة، وتدعم الرذيلة، متذرة بالحرية الفردية المزعومة.

إنك تجد في بلاد الغرب - مثلاً - إتاحة الحرية لأهل العري والعهر والفساد والرذيلة، بل تجد ذلك الانحطاط مفروضاً على الفرد وضمن مناهجهم الدراسية، تجد السباحة العارية والثقافة الجنسية، وفي المجتمعات الشرقية يدرس الإلحاد للصبيان الصغار.. فما أحلم الله!! أما حين يرون بادرة للفضيلة والمعروف فإنهم يقفون في طريقها، ويثدونها في مهدها، ويحاربونها بضراوة. ومن أقرب الأمثلة لذلك ما حصل قبل فترة ليست بالبعيدة في فرنسا، حين ذهبت ثلاث فتيات مسلمات إلى مدرستهن، وقد لبسن الحجاب على رؤوسهن، فمنعهن مدير المدرسة من الدخول حتى يخلعن الحجاب، وتطورت القضية، حتى درست على أعلى المستويات الرسمية، وتدخلت فيها دول خارجية للوساطة عند والد هؤلاء الفتيات لتغيير قناعتهن بالحجاب. وطفقت الصحف الفرنسية تكتب عن هذه القضية، وتحذر من هذه الظاهرة، وتذكر خطورة الإسلام على فرنسا، وتتبع

تاريخ الحجاب، وكيفية نزعن في مصر، وأقحموا في تلك القضية ثورة الخميني الإيرانية، وهولوا الأمر تهويلاً عظيماً!!
سبحان الله!! أين الحرية الفردية التي يتغنون بها؟! ما هذا الهلع والرعب من هذا التصرف اليسير الذي لا يعد شيئاً في خضم ذلك المجتمع المتحلل؟!
إن هذه الحملة الشعواء لتدل على زيف دعاوى العلمانية البراقة التي تتغنى بالحرية، فإذا كان الإسلام هو الخصم صودرت الحريات، وظهرت العداوة والشراسة جلية لا موارد فيها ولا هدوء.

إذن فهذا المجتمع- باختصار- يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف.
ولقد رأيت في بعض البلاد التي هاجر إليها كثير من المسلمين وأقاموا فيها، وتزوجوا من نساءها النصرانيات، رأيت أن بنت الواحد من هؤلاء تمارس حريتها الكاملة، فتخرج متى شاءت، وتدخل متى شاءت، وتأتي بعشيقها إلى البيت ليجلس معها في غرفتها الخاصة، والويل لأبيها إن تدخل في شأنها، إذ ما عليها حينئذ إلا أن تدير قرص الهاتف لتتصل بالشرطة، فتأتي الشرطة وتقبض على الأب، وتأخذه إلى المخفر، وتجري معه تحقيقاً طويلاً، لأنه تدخل في حرية البنت!!

هكذا يأمرهم بالمنكر وينهون عن المعروف- والعياذ بالله.
أما المسلمون الذين اختصمهم الله بالخبرة فهم يتأمرون بالمعروف، ويتناهون عن المنكر، ويتعاونون على البر والتقوى.

2- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جزء من التكافل الذي جعله الله تعالى قائماً بين المؤمنين، إذ المؤمنون متكافلون متكاملون فيما بينهم، فمثلاً لا يجوز أن يكون هناك مسلم جائع والمسلمون حوله يأكلون ملء بطونهم، ولو حدث ذلك لكان لذلك المسلم أن يأخذ ممن حوله من المسلمين بالقوة ما يسد رمقه، ويقضي به حاجته، ويكون المسلمون أئمين في تخليهم عن مساعدته وسد حاجته. وكذلك الحال في سائر الحاجات الضرورية. ولو وجدت رجلاً يعرف لوجب عليك أن تنقذه بقدر استطاعتك، حتى لو ترتب على ذلك أن تتشغل عن عبادة مفوضة قد شرعت فيها من صيام أو صلاة أو غيرهما.
ولو رأيت شخصاً يريد شراء بضاعة فاسدة لكان واجباً عليك أن تبين أنها فاسدة من باب التناصح

وإرادة الخير للمسلمين، ومن هنا كانت مراقبة السلع والأسواق وحماية المستهلك جزءاً من نظام الحسنة الشرعية.

هذا كله لأن المحافظة على "الإنسان" في الإسلام قضية مهمة جداً. لكن "الإنسان" في الإسلام ليس جسداً فقط، وإنما هو جسد وروح، فكما أننا مطالبون بالمحافظة على أرواح المسلمين وأموالهم، فكذلك نحن مطالبون بالمحافظة على عقيدتهم وأخلاقهم وتمسكهم بدينهم، وذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يتم به تكميل ما يطرأ على دين بعض المسلمين من النقص والتقصير، ويحصل به التكافل الواجب في هذا الجانب.

با خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتعبت نفسك فيما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان
3- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضماناً للبيئة من التلوث الفكري والأخلاقي، وهذا النوع من التلوث لا يقل خطورة وفتكا عن التلوث الحسي الذي ينجم - مثلاً - عن الحرب الجرثومية التي تفرغ الناس، وتقض مضاجعهم، أو غيرها من وسائل التلوث. فإتاحة الفرصة - مثلاً - لأهل الرذيلة ليمارسوا الإفساد من خلال الأغنية، والمجلة والكتاب، والأجهزة المرئية، وبيوت الدعارة، وغيرها، هذا يلوث البيئة العامة، ويشير الوباء الأخلاقي الفتاك في المجتمع، مما يعسر مهمة المصلحين، ويجعلهم يقفون أحياناً عاجزين عن مقاومة تيار الانحلال.

وقل مثل ذلك في نشر الشبهات الفكرية التي تشكك الناس في دينهم، من خلال الكتاب، والمجلة، والجريدة، والشريط، والقصيدة، ونحوها، فإن في ذلك - أيضاً - تلويثاً للبيئة من الناحية الفكرية، مما يجعل كثيراً من الناس يتخبط في بحر من الشبهات التي تتجاذبه هنا ومن هناك.

إنه لا يجوز أن يقذف بالمجتمع في أحضان الشبهات والشهوات اعتماداً على ما يزعم له من حصانة، فإن الإنسان ليس معصوماً وليس لديه حصانة من الضلال أو الانحلال حين يتعرض لسبول الفتنة، قال الله تعالى:- (وخلق الإنسان ضعيفاً) {سورة النساء، الآية: 28} وإنك لتجد الرجل التقى الطاهر قد يتعرض لشبهة أو شهوة، فيظل يعالج قلبه أياماً من جراء ذلك، فالنفس أمارة بالسوء، والشيطان مسلط على ابن آدم، والإنسان مجبول على حب الشهوات.

والمجتمع الذي تظهر فيه المنكرات- فكرية أو أخلاقية- ويتعرض لهزات عظيمة، لا يعلم مداها إلا الله، ولهذا قيل: أن المنكر إذا خفي، لم يضر إلا صاحبه، وأما إذا أعلن، فإنه يضر الخاصة والعامة.

ولذلك فإن صاحب المنكر إذا كان في بيئة غير ملوثة فإنه يخفي منكره، ويبالغ في التوازي والإستتار، لأنه يعلم أنه يعيش في بيئة صالحة، وأنه يقوم بعمل ضد المجتمع، فشأنه تماماً كشأن الذي يريد أن يقوم بعمل تخريبي يخل بأمن المجتمع، فيخطط وينفذ في الظلام، بعيداً عن الأنظار.

لكن صاحب المنكر إذا كان يعيش في بيئة ملوثة موبوءة فإنه يمارس منكره جهاراً على مرأى ومسمع من الناس، لأنه يحس أنه يقوم بعمل طبيعي، لا يخالفه المجتمع عليه، وقد يؤول الأمر إلى استتار صاحب المعروف واستخفائه خشية العقوبة، أو خوفاً من أعين الناس وألسنتهم الحداد!

وكم هو محزن أن ينشأ بعض أطفال المسلمين في بيئات ملوثة بالسموم الفكرية أو الأخلاقية أو غيرها من سموم الفساد، فيرضعون الرذيلة مع حليب الأم، ويستنشقون الهواء الملوث بالجراثيم المعنوية الفناكة، فينشأ أحدهم ضحل الثقافة، بعيداً عن الدين، منحرف الفكر والسلوك.

غاية علمه خليط من قمامات الأغاني، والتصورات التائهة، والاهتمامات النافهة لا يكاد يقيم آية من القرآن الكريم. يستنكر المظاهر الإسلامية إذا رآها، لأنه لم يعتدها ولم يبالغها، فيستوحش مثلاً - من منظر المرأة المحجبة العفيفة، ويستغرب صنيعها، لأنه ترعرع في بيئة ملوثة بضروب الجرائم السلوكية والفكرية.

4- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانته من العقوبات الإلهية التي تحل بالمجتمعات إذا فشا فيها الفساد. وسيأتي تفصيل تلك العقوبات في المبحث التالي.

الهوامش

لا يوجد

العقوبات والآثار المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

سنن الله تعالى في خلقه ثابتة لا تتغير، ولا تحابي أحداً ولا تتخلف عند وجود أسبابها. وإن من سنن الله الماضية أن يسلط عقوباته على المجتمعات التي تفرط في شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود و عيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) {سورة المائدة، الآيات 78، 79}

ولقد غمط الجهل وقلة الدين على قلوب بعض السطحيين، فاعتروا بإمهال الله عزوجل فطنوا أن تحذير الغيورين من مغبة التماذي في المنكر، ومن عفى السكوت عن إنكاره، طنوا ذلك ضرباً من ضروب الإرهاب الفكري والتخويف المبالغ فيه، وليس له حقيقة. لكن الذين يستنبهون بنور الوحي، ويتأملون نصوص الكتاب والسنة، يدركون تمام الإدراك العقوبات العظيمة التي سننها الله في حق كل أمة تخلت عن التأمير بالمعروف والتناهي عن المنكر، سواء كانت تلك النصوص حكاية لمصائر الأمم التي فرطت في تلك الشعيرة، أو وعيداً لمن سلك سبيله وليس من الضروري أن تظهر هذه العقوبات بين يوم وليلة فإن الذي يحدد زمانها ومكانها وصفتها هو الله عزوجل وليس استعجال البشر أو استبطاءهم. وتلك العقوبات والآثار السيئة كثيرة ومتنوعة، لكن من أظهرها:

1- كثرة الخبث: روى البخاري ومسلم، عن زينب بنت جحش رضی الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ يوماً من نومه فرعاً وهو يقول : لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا- وحلق بين إصبعيه السبابة والإبهام-

فقال له زينب رضی الله عنها: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم، إذا كثرت الخبث". (12) وكيف يكثر الخبث؟

إن المنكر إذا أعلن في مجتمع، ولم يجد من يقف في وجهه، فإن سوقه تقوم، وعوده يشتد، وسلطته تظهر، وروافقه يمتد، ويصبح دليلاً على تمكن أهل المنكر وقوتهم، وذريعة لإقتداء الناس بهم، وتقليد إياهم، وما أحرص أهل المنكر على ذلك، ولهذا توعدهم الله جل وعلا فقال: (إن الذين يحيون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) {سورة النور، الآية: 19}.

فإذا قلد بعض الناس أهل المنكر والزيغ في منكرهم، أخذ الباطل في الظهور، وهان خطبه شيئاً فشيئاً في النفوس، وسكت الناس عنه، وشغلوا بما هو أعظم منه، وما تزال المنكرات تفسو، حتى يكثر الخبث، ويصير أمراً عادياً مستساغاً، تألفه النفوس، وتتربي عليه.

وينحسر - بالمقابل - المعروف والخير، ويصبح هو المستغرب، ولذلك قال الخليفة الملمه عمر بن عبد العزيز - رحمه الله في كتابه إلى أمير المدينة الذي يأمره فيه بأن يأمر العلماء بالجلوس لإفتاء العلم في المساجد: " وليفتشوا العلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً".

إنها لعقوبة كبيرة أن يهيمن المنكر، ويصبح المعروف غريباً. لكن.. هل يقف الأمر عند هذا الحد.

إليك الإجابة:

2- إن كثرة الخبث تؤدي بالعذاب الإلهي العام، والهلاك الشامل، كما دل على ذلك حديث زينب المذكور آنفاً، الذي نقل عن جماعة من الصحابة، مما يدل على اهتمام النبي، صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر.

ولقد بؤ الإمام مالك في الموطأ على هذا الحديث باباً سماه. (باب ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة)، وساق تحت هذا الباب أثراً عن عمر بن عبد العزيز، وهو قوله رحمه الله : كان يقال : إن الله تبارك وتعالى لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عمل المنكر

جهاراً استحقوا العقوبة كلهم (13)

وهذا الأثر يدعم ما سبق ذكره من خطورة الإعلان بالمعصية ومن وجوب التفريق بين المنكر المختفي والمنكر الظاهر.

وقد قص الله عزوجل علينا خبر بني إسرائيل حين نهاهم أن يعدلوا في السبت، ولنا في تلك القصة عبرة: (وإذ قالت أمة منهم تعطون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون. فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونا فردة خاسنين) {سورة الأعراف، الآيات: 164-166}.

إذن أنجى الله تعالى الذين ينهون عن السوء فقط، وأما البقية فقد عذبهم كلهم. هذه سنته سبحانه في كل أمة يحق عليها العذاب.

فإن لم يكن في الأمة من ينهي عن السوء والفساد فلا نجاه لأحد منها. (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه..) {سورة هود، الآية: 116}.

وفي حديث جرير الذي رواه أبو داود: "ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدرون على أن يغيروا عليه، فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا" (14) إن وجود المصلحين في الأمة هو صمام الأمان لها، وسبب نجاتها من الإهلاك العام، فإن فقد هذا الصنف من الناس، فإن الأمة وإن كان فيها صالحون - يحل عليها عذاب الله كلها صالحها وفاسدها، لأن الفئة الصالحة سكتت عن إنكار الخيثة، وعطلت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستحقت أن تشملها العقوبة.

وروي أبو داود والترمذي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: "أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) {سورة المائدة، الآية: 105}. وإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه". (15) وقد روي هذا الحديث مرفوعاً كما روي موقوفاً، والراجح أنه موقوف على أبي بكر، لكن له حكم المرفوع، لأنه مما لا يقال بالرأي.

والظالم هنا هو المرتكب لأي نوع من أنواع الظلم الكثيرة، المشرك ظالم: (إن الشرك لظلم عظيم) {سورة لقمان، الآية: 13}، والمعاصي - أيًا كانت معصيته - ظالم لنفسه ولغيره، سواء كان سارقاً أو غاشياً أو منتهكاً عرضاً أو غير ذلك.

وروي حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم (16) يهز القلوب الحية، ويدفع أصحابها إلى أن يكونوا من أولي البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض، لتكون سفينة المجتمع محمية من الغرق الذي يهددها عند ما يترك السفهاء يخرقون فيها، كما روي النعمان بن بشير، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً" (17) فالمجتمع تماماً كأصحاب السفينة هؤلاء، فإن الذين في أعلى السفينة إن تركوا الذين في أسفلها ليخرقوا في نصيبهم خرقاً وقالوا: هذه حربة شخصية لهم، فليفعلوا ما شاءوا، فإن النتيجة غرق السفينة وهلاك الجميع، وإن أخذ الذين في الأعلى على أيدي الذين في الأسفل وقالوا لهم: ليس الإضرار بالملك العام من الحرية الشخصية، فالنتيجة نجاه الجميع، وهكذا حال المجتمع، فإن أهل الفساد الواقعين في حدود الله يخرقون بمعاول انحرافهم في سفينة المجتمع، فإن أخذ المصلحون على أيديهم، ومنعواهم من الإضرار بالمجتمع، نجا الجميع، وإن تركوهم غيهم، وتخاذلوا عن الإنكار عليهم، هلكوا قاطبة. وقبل أن أترك الحديث عن هذه العقوبة أود أن أتنبأ إلى أمر لا يكاد ينقض العجب منه، وهو أن بعض الناس يستغربون مثل هذا الكلام، يستغربون من قول الناصحين: إن المصلحين هم حماة سفينة المجتمع من الغرق، بل قد يستغربون من قول الناصحين: إن ما أصابنا وأصاب غيرنا من الأحداث الأخيرة المؤلمة إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي. يستغربون ذلك، ويعزرو بعضهم ما حدث إلى الأسباب المادية، ويقولون: كيف تكون المعاصي هي سبب ما حدث، والكفار - مع كفرهم - يعيشون في نعيم وسعة عيش، وتمكين في الأرض؟!.

هكذا يقولون ويظنون، متناسين أو جاهلين سنن الله الثابتة، والنصوص الصريحة الواضحة، والوقائع التاريخية السالفة والخالفة.

وهذا منطق الذين لا تتعدى نظرتهم الحياة الدنيا، ومنطق السطحيين الذين ينظرون إلى رقعة محدودة من المكان، في حيز محدود من الزمان، ومنطق الماديين الذين ينتكرون لوجي الله عزوجل-: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون. فأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيئاتاً وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. فأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. أو لم يهد للذين يرتنون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) {سورة الأعراف، الآيات: 96-100}

(وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لغفتهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً) {سورة الجن، الآيات: 16-17}
(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون. وليوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون. وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) {سورة الزخرف، الآيات: 33-35}
3- الاختلاف والتناحر:

إن من أنكى العقوبات التي تنزل بالمجتمع المهمل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتحول ذلك المجتمع إلى فرق ويشيع تتنازعها الأهواء، فيقع الاختلاف والتناحر: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض {سورة الأنعام، الآية: 65} وذلك التناحر يجعل المجتمع عرضة للانهايار والانهمزام أما العدو الخارجي المترص.

ولا يحمي المجتمع من التفرق والاختلاف إلا شريعة الله، لأنها تجمع الناس، وتحكم الأهواء، أما إذا ابتعد الناس عن شريعة الله تعالى، أصبح كل امرئ يتبع هواه، وأهواء الناس لا يضبطها ضابط.

وإن مما يدل على ارتباط التفرق والتناحر بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن الله عزوجل قال: (ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون {سورة آل عمران، الآية: 104} ثم قال بعد ذلك مباشرة: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) {سورة آل عمران، الآية: 105} والمتأمل في حال عدد من البلاد الإسلامية يجد أن من أهم أسباب تفرق المجتمع فيها أنهم أهملوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فترتب على ذلك شيوع الفساد وظهوره وسيطرته، بنشئ صورته وأنواعه: ما بين عري، وسكر، وحفل غنائي، وسهرة راقصة، وعرض مسرحي، وغير ذلك.

وهذا الفساد يعيط الصالحين، فيغارون على حرمان الله، فيحاولون تغيير المنكر، فلا يجدون قناة شرعية تمكنهم من تغيير المنكر، فيضطرون إلى أساليب مندفة، تجعل المجتمع أطرافاً متصارعة متناحرة.

ونماذج ذلك في المجتمعات الإسلامية غير قليلة، فمن ذلك ما نشرته بعض الصحف من عدة أخبار منذ عدة سنوات عن إندونيسيا التي يشيع فيها كثير من المنكرات-شأن كثير من البلاد الإسلامية- تقول هذه الأخبار إن هناك مجموعة من الناس غير معروفة تصيد المجرمين خفية وتقضي عليهم، أي إذا وجدوا إنساناً يقوم- مثلاً-على بيت دعارة، أو على أي منكر علني، فإنهم يقتلونه، ولا تعجب من مثل هذا في بلاد يسكنها نحو مائة وخمسين مليوناً من المسلمين وتكون عطلتهم الرسمية يوم الأحد.

ومن ذلك ما يجري من بعض الغيورين في مصر- مقلداً من إنكار بعض المنكرات بصورة حماسية، فقد أعلن مثلاً في جامعة أسيوط عن حفل غنائي مختلط، فقام عدد من الطلاب ضد هذا المنكر، ودخلوا مكان الحفل بالقوة، وحطموا آلات الفسق، ومنعوا إقامة الحفل في تلك الليلة.

وغير أولئك المتحمسين المندفعين ينظر إلى ذلك التصرف على أنه شغب وإخلال بالأمن. ولو وجد أولئك الغيورون سبيلاً شرعياً للإنكار لم يلجأ أحد منهم إلى مثل هذه الرق، ولكن سدت أمامهم المنافذ الصحيحة، وأوصدت دونهم الأبواب، فركبوا تلك المراكب الصعبة وهم يقولون:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبٌ ----- فما حيلة المضطر إلا ركوبها
وقد كانوا-لاشك عن ذلك في سعة، ولهم عنه مندوحة-

ومن صور التفرق والتمزق التي تحدث في المجتمع بسبب هذه الشريعة أن تتفشى بين الناس منكرات القلوب من الغل والحقد والحسد والبغضاء والتناحر وما يترتب على اختلاف القلوب من اختلاف التوجهات والآراء والأعمال والأقوال، بحيث إن المجتمع يهدم بعضه بعضاً، ويدمر نفيه بيديه.

فهذه من أعظم المنكرات التي يجب إنكارها والتحذير منها، وسكوت العالمين والمعلمين عنها سبب في انتشارها ورسوخها وصعوبة الخلاص منها.

ثم إن "المنكر" إنما صار منكرًا، ونهى الله تعالى عنه لما فيها من الخبث والضرر العاجل والأجل، فالمعاصي وبال على الأفراد والمجتمعات، وسبب لتمزقها وتشتتها.. ثم انهيارها وزوالها، فالنهي عنها سياج حماية الأمة من آفات الضعف والتخلخل والضياع، والسكوت عليها دليل أكيد على غياب معايير النقد الصحيح والتوجيه البناء، وهو تواطؤ أثم مع القوى الشريرة التي تريد بالأمة سواءً، وتسعى لهدم قلاع الخير والفضيلة والصلاح.

فمعاصي البيع والشراء من النجش والغش وبيع المعدوم والمجهول وسائر أنواع البيوع المحرمة، والمعاملات المنكرة لها من الأثر الكبير في تشتيت القلوب وتدابرها وتباغضها ما لا ينكره ذو عقل.

وما يقال فيها يقال في سائر أنواع المعاصي.
والسكوت على هذه المنكرات هو نوع من الرضا بها وإقرارها.

4- تسليط الأعداء:

فإن الله جل وعلا قد بينلي المجتمع التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأن يسلم عليهم عدواً خارجياً، فيؤذبه، ويستبيح بيضتهم، وقد يأخذ بعض مافي أيديهم، وقد يتحكم

في رقابهم وأموالهم.

وقد مني المسلمون في تاريخهم بنماذج من ذلك، لعل منها ما وقع للمسلمين في الأندلس، حيث تحولت عزتهم وقوتهم وامتعتهم-لما شاعت بينهم المنكرات بلا نكير- إلى ذل وهوان سامهم إياه النصارى، حتى صار ملوكهم وسادتهم ينادى عليهم في أسواق الرقيق، وهم يبكون وينوحون، كما قال الشاعر:

فلو رأيت بكاهم عند بيعهم _____ لهالك الوجد استهوتك أحزان
وتقول أم أحدهم-وهو أبو عبد الله-آخر ملوك الطوائف-تخاطب صاحب الملك المضاع:
ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً _____ لم تحافظ عليه مثل الرجال
وشبيه بذلك ما حدث في فلسطين من تسلط اليهود على المسلمين، وتكيلهم بهم، وطردهم لهم، حتى صارت فلسطين أخت الأندلس، وحتى ذهبت كما قال الشاعر:
يا أخت أندلس صبراً وتضحية _____ وطول صبر على الأرزاء والنوب
ذهبت في لجة الأيام ضائعة _____ ضياع أندلس من قبل في الحقب
وطوحت بينيك الصيد نازلة _____ بمنلها أمة الإسلام لم تصب
5-عدم إجابة الدعاء:

الإنسان يلجأ إلى الله وحده عندما يمسه الضر، ويدعوه سبحانه أن يكشف عنه السوء، حتى المشترك يفعل ذلك: {ثم مسكم النثر فإليه تجأرون} {سورة النحل، الآية: 53}. {وإذا مسكم الضر في البر والبحر ضل من تدعون إلا إياه} {سورة الإسراء، الآية: 67}.
والمسلمون التاركون لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندما ينزل بهم العقاب، يتجهون إلى الله عزوجل يدعونه، ولكنه لا يستجيب لهم، كما جاء في حديث حذيفة الذي سبق ذكره أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليبعثن الله عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه، فلا يستجاب لكم" (18)

"يا الله! أو حقا يدعو الناس فلا يستجيب الله لهم؟! الله الذي يقول: {ورحمتي وسعت كل شيء} {سورة الأعراف، الآية: 156} الله الذي يقول: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان}؟! {سورة البقرة، الآية: 186} هل يمكن أن يحدث ذلك؟
صدق الله، وصدق رسوله، وما يمكن أن يكون ذلك إلا حقاً. وأنه لحق ترتجف له النفس فرقا، ويقشعر الوجدان رعباً. وماذا يبقى للناس إذن؟ ما ذا يبقى لهم إذا أوصدت من دونهم رحمة الله؟ ولمن يلجأون في هذا الكون العريض كله وقد أوصد الباب الأكبر الذي توصل بعده جميع الأبواب.. ويبقى الإنسان في العراء، العراء الكامل الذي لا يستتره شيء، ولا يحميه شيء من لفة الهاجرة وقسوة الزمهرير.
الآن إنه للهول البشع الذي يتحامي الخيال ذاته أن يتخيله.. لأنه أقطع من أن يطيقه الخيال. فهل كتب الله ذلك الهول البشع على عباده-الذين يدعونه ويسألونه ويستنصرونه؟
نعم.. حين يكفون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو بأضعف الإيمان (19)

6- الأزمات الاقتصادية:

قد تحل الأزمات الاقتصادية بالمجتمع المفرط في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فتتلاطم به أمواج الفقر والضوائق ويدوق الولايات من الحرمان.
ولقد وصلت الأزمات ببعض المجتمعات الإسلامية إلى حال من الفقر يرثى لها، حتى أصبح الفرد يكدر في سبيل الحصول على لقمة العيش فلا يجدها، مما قد يحوجه إلى مافي أيدي النصارى المتربصين الذين يسخرون طاقاتهم لتنصير المسلمين، فيؤدي ذلك إلى وقوع المسلم في التنصير والعباد بالله-خاصة أن انشغاله بلقمة العيش قد ينسيه كثيراً من أمور دينه، مما يبعده عنه، ويهونه عليه.

وهكذا المنكرات، سلسلة بجر بعضها بعضاً إلى أن تهوي بصاحبها.
وكما أن هناك من يفسر ما يحل بالمجتمعات من الحروب والأحداث المؤلمة تفسيراً مادياً بحثاً، كذلك هناك من يفسر الأزمات الاقتصادية تفسيراً مادياً بحثاً، والمؤمن الذي يعي سنن الله، يدرك أن وراء السبب المادي سبباً شرعياً حدث في المجتمع، فاستحق ما جرت به سنة الله من معاقبة المجتمع الذي يظهر فيه الخبث بلا نكير.
كما أن هناك من تسفك أعراضهم على مذبح الرذيلة، وتداس كرامتهم جري وراء الدرهم والدينار.. إن كثيراً من الجرائم وأماكن البغاء تتفشى في تلك الأحياء الشعبية التي يتشبع فيها الفقر، وينتشر فيها العوز والفاقة.
ولعل من أجلى الصور وأوضحها في الدمار الاقتصادي الذي يلحق المجتمعات بسبب إهمال النهي عن المنكر: السكوت عن الربا وما يجره من تفاقم في المستويات المعيشية والاقتصادية، فيزيد الفقر فقراً إلى فقره، ويزيد الغني ثراء، فيصبح المال دولة بين الأغنياء، وتسير الأمة إلى هاوية الدمار البعيد.

وها هي ذي مراكز الدراسات الغربية تتحدث عن مصير أسود ينتظر الرأسمالية خلال عقد أو عقدين من الزمان، كذلك المصير الذي آلت إليه الشيوعية!.
{فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانظروا إني معكم من المنتظرين} {سورة يونس، الآية: 102}

7- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يوجب الوقوع في الشهوات والإغراق فيها، وهذا من شأنه أن يجعل الناس مرتبطين

بالدنيا، أصحاب نفوس ضعيفة، غير جادين. فالشباب الذي ليس له هم إلا أغنية ماجنة، أو مجلة خليعة، أو شريط مرئي هابط، أو مكالمة هاتفية شهوانية، أو سفر إلى بلاد الإباحية والتحلل، هذا الشباب الذي أصبحت حياته كلها شهوة هل يستطيع أن يعتقد من إفساد الدنيا، ويجد في تحصيل العلم النافع؟! هل يستطيع أن يحمل السلاح، ليدافع عن نفسه، وعن أمته؟! والركون إلى الشهوة، ولم يألف الجدية والحزم.

وإنك لتجد مصداق ذلك عندما تتأمل في واقع كثير من الشباب المبتعثين إلى البلاد الغربية- مثلاً- حيث ترى الشباب المتدين المستقيم منهم جاداً في تحصيله العلمي، لأنه يحمل هم أمته، لأنه لم يعبد الشهوة، ولم يرسف في أغلال الدنيا الدينية. أما الشباب الشهواني المنحرف فإنك تراه منغمساً في شهواته ورغباته، غير جاد في تحصيله العلمي، تافه الاهتمامات، لأنه لا يحمل إلا هم هواه، فتخسر الأمة، ويكون وبالاً عليها.

وهذه الحقيقة أدركها كل البشر، حتى الوثنيون منهم، فإن اليابان- مثلاً- بعثت أول بعثة من أبنائها للتعليم في بلاد الغرب، ورجع أولئك المبتعثون متحللين من مبادئهم، ذائبين في الشخصية الغربية، منغمسين في الشهوات الفردية، لم يكن من اليابانيين إلا أن أحرقوهم جميعاً، علي مرأى من الناس، ليكونوا عبرة لغيرهم، ثم ابتعثوا بعثة أخرى، وأرسلوا معهم مراقباً كان يقدم عنهم تقارير متواصلة، تبين جدبتهم ومحاظتهم على تقاليدهم الوثنية وغيرها. هكذا أدركوا أن صرعى الشهوات لا يمكن أن يكونوا جادين في يوم من الأيام.

وفي مجتمعات المسلمين لا شك أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبب غرق أبناء المجتمع في الملذات والأهواء التي تقعد بهم عن معالي الأمور.

8- الإهمال في أخذ العدة:

سواء كانت عدة معنوية بقوة القلوب وشجاعتها، أو عدة مادية محسوسة تجهز لمقاومة الأعداء، فإن الاستعداد لا يتقنه ولا يلتفت إليه إلا أصحاب الهمم، المعرضون عن السفاسف. أما صرعى الشهوات فليسوا أهلاً لذلك، بل إن مجرد الكلام عن الحرب يربعهم، فضلاً عن خوض المعارك، وركوب الأهوال.

9- هناك عقوبة جد خطيرة، وهي أن الأمة بدأ مسارها في عدد من البلاد الإسلامية يتغير: ذلك أن المنافقين المفسدين لم يكتفوا بإشاعة المنكرات، بل مضوا يخططون لسلب الأمة عن دينها جملة، حتى تتحول إلى أمة علمانية لا دين لها، تقبل أن تحكم بأي شريعة، وأن يشيع فيها أي انحراف فكري أو خلقي.

وهذا التحول أخطر من سيطرة الكافرين والمنافقين عسكرياً على البلاد الإسلامية، والواقع يشهد لذلك، فإنك لو تأملت لوجدت البلاد الإسلامية التي أخذت من المسلمين بالقوة العسكرية محدودة، كالأنديلس التي أخذها النصارى قديماً، وفلسطين التي سيطر عليها اليهود قهراً.

هكذا تبقى قليلة محدودة، ثم إن تأثيرها على مسار الأمة إيجابي، لأن فيها إيقاظاً لها، وتحريكاً لغيرتها، وبعثاً لحميتها الدينية.

لكن لو تأملت في الواقع كثير من البلاد الإسلامية التي كان يحكمها الإسلام وبشيع في أهلها المعروف، لوجدتها اليوم بلاداً علمانية، تحكمها نظم غير شريعة الله، نظم تحمي الرذيلة، وتحارب الفضيلة، فتجد- مثلاً- في جامعاتها الاختلاط نظاماً محتماً وتجد محاربة الحجاب، ووصف أهله بالرجعية والتخلف، إلى غير ذلك من فنون الإغواء.

هكذا وقعت الأمة في براثن المنافقين، فسعوا جاهدين لسلبها عن دينها، بسبب غياب المصلحين الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عن الساحة، أو ضعفهم في أداء رسالتهم. والمجتمع ميدان لصراع الفئتين، (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) {سورة التوبة، الآية: 71}، (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف) {سورة التوبة، الآية: 67} فأى الفئتين غلبت، استطاعت أن تصبغ المجتمع بصبغتها.

ولذلك كانت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية مصيرية، يترتب عليها احتفاظ الأمة بمسارها الإسلامي، وله السبب كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عهد الإسلام المتقدمة يحظى بأشد العناية من المسلمين أجمعين، فقد كان كل مسلم يشعر أنه مطالب بذلك، في كل مجال، وعلى سائر المستويات، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في بيته، وفي سوقه، وفي مسجده، وفي كل مكان، لا يفرق في ذلك بين صغير أو كبير، ولا قريب أو بعيد، ولا معروف أو مجهول، ولا ذكر أو أنثى. هكذا كانوا يشعرون أن ذلك الأمر دين يدينون الله به، فلم يكلوه بأكمله إلى جهة معينة، ويلقوا باللائمة عليها إذا رأوا منكراً.

ومع ذلك كله عني المسلمون بنظام الحسبة الذي كان رجاله يقومون بمراقبة المجتمع عموماً في كل شيء، ويسعون لإصلاحه ومنع جميع أسباب أذاه، فيمنعون الباعة من الغش، وينصفون الدائنين من المدينين، وإذا رأوا مثلاً بيتاً أيل للسقوط عالجوا أمره بما يناسب، وإذا رأوا نزاعاً فضوه، إلى غير ذلك من المهمات.

إذن كانت.. كانت مهمة رجال الحسبة مهمة شمولية، أصبحت اليوم موزعة على عدة جهات، من أنظمة مرورية، وبلدية، وتجارية، وغيرها، إلى جانب مهمة مراقبة السلوك

والأخلاق وإيقاف الناس عند حدود الله.
وما كان هذا الاهتمام البالغ بنظام الحسبة الذي ظهر بوضوح في عهد عمر بن الخطاب إلا لإدراك الأمة لأثر تلك الشعيرة في مسارها.

الهوامش

- 12 - البخاري (3168) و مسلم (2880)
- 13 - الموطأ 1/991
- 14 - أبو داود (4339)
- 15 - الترمذي (2168) وابودود (4338)
- 16 - رواه الترمذي (2169) وأحمد في المسند 5/388
- 17 - رواه البخاري (2361)
- 18 - رواه الترمذي (2169) وأحمد في المسند 5/388
- 19 - قيسات من الرسول ، محمد قطب ص: 54، 53- ط: الثانية 1992م.
- 20 - رواه مسلم (49).

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أجمع أهل العلم على فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين أو كفاية. فذهب ابن حزم رحمه الله إلى أنه فرض عين، لحديث أبي سعيد مرفوعاً: "من رأى منك منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (20)

وعند جماهير أهل العلم أنه فرض كفاية، وهذا هو الصحيح، لقوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. {سورة آل عمران، الآية: 104}. فإذا قامت الأمة المذكورة في الآية-وهي الطائفة-بالمهمة سقطت عن الباقيين. ولكن يشترط أن تكون هذه الطائفة ممن تتحقق بهم الكفاية في إقامة هذه الشعيرة. على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون فرض عين في بعض الحالات. إضافة إلى أن الإنكار القلبي وكرهية المنكر والقائمين به، هو فرض عين على الجميع باتفاق العلماء، ولا يعذر أحد بتركه، لأنه ممكن لكل أحد. وهذه الحالات هي:

1- إذا لم يعلم بالمنكر غير شخص معين، فهو حينئذ مطالب بالإنكار وجوباً، لأن الكفاية لا تقوم إلا به.

2- إذا لم يستطع تغيير المنكر إلا شخص بعينه، فمثلاً قد تشيع بعض المنكرات في وجهاء المجتمع وأعيانه وكبرائه، فلا يستطيع كل أحد من المسلمين أن ينكر عليهم، فيتعين حينئذ على من يستطيع الإنكار من ذوي المكانة العلمية والاجتماعية أن ينكر عليهم.

3- يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من ولاة الله أمراً من أمور المسلمين، بدءاً بالسلطين الذين ائتمنهم الله تعالى على الأمة، فإنما شرع الإسلام الولاية العظمى لتحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل مصلحة تحتاجها الأمة فهي من المعروف، وكل مفسدة للأمة فهي من المنكر، سواء كان ذلك في الأمور الدينية أو الدنيوية

ثم كل مسلم حسب ولايته ومسؤوليته، فالوزير مسؤول عن رعيته. ومدير الدائرة الحكومية مسؤول عن رعيته ومدير المؤسسة مسؤول عن رعيته، والمدرس مسؤول عن رعيته، والأب مسؤول عن أسرته ورجل الحسبة المكلف من قبل ولاة الأمور مسؤول عن القيام بمهمته بقدر المستطاع.

وهكذا نجد أن كل فرد في الأمة مطالب بأن يكون قيماً على من ولاة الله أمرهم، من أدنى مسؤولية إلى أعلى مسؤولية.

وها هنا قضية خطيرة لا بد من إثارتها، وهي أن كثيراً من الناس اعتادوا أن يلقوا بمسؤولية إنكار المنكر على غيرهم، فيلومون-مثلاً-العلماء والأمرء، لأنهم يستطيعون تغيير المنكر، ويتصلون هم من المسؤولية تماماً، ولو اطلعت على بيت أحدهم فقد تجد فيه عشرات المنكرات لم يغيرها، وكأنه ينتظر أن يأتي العلماء إلى بيته ليغيروها.

وهذه العادة خطيرة وسيئة، فإن كل فرد في المجتمع مسؤول عن إصلاح ما يستطيع إصلاحه لأنه جزء من المجتمع، يجب عليه القيام بمهمته، كما يجب على العلماء وغيرهم أداء مهمتهم، ولو أن كل مسلم قام بما عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لصلحت الأمة وأفلحت، وظهر المعروف واختفى المنكر.

أما إذا ظلت الأمة تتدافع القيام بهذا الواجب، فالعامة تلوم العلماء وتطالبهم بالإصلاح، والعلماء يلومون العامة على خذلانهم لهم، وكل فئة في المجتمع تلقي بالمسؤولية على غيرها، فيظل المنكر قائماً ممكناً إلى يوم يبعثون.

الهوامش

20- رواه مسلم (49).

مراتب الإنكار

بين الرسول الله صلى الله عليه وسلم مراتب الإنكار بقوله: "من رأى منك منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (21)

إذن، فالمطلوب من المسلم حين يرى المنكر أن يغيره بحسب المستطاع، متدرجا في ذلك من أقوى صور الإنكار إلى ما هو دونها. أما من حيث الواقع العملي، فالذي يحدث أولاً هو تأثر القلب ونفوره وإنكاره للمنكر عندما يراه، ثم يرسل القلب الأوامر إلى اللسان لينطلق بإنكار ذلك المنكر على من واقعه واقترفه.

فإن امتثل وأقلع عن منكره فهذا هو المراد، وإلا كان الانتقال إلى التغيير باليد. إذن فأول ما يحدث هو التغيير بالقلب، ثم التغيير باللسان، ثم التغيير باليد، من حيث الواقع.

لكن المراد من المسلم هو أن يغير بيده إن استطاع، فإن عجز لجأ إلى التغيير باللسان، فإن عجز كفاه أن يغير بقلبه، وذلك بأن يكره ذلك المنكر ويبغضه. والإنكار بالقلب فرض عين على جميع المسلمين، في جميع الأحوال، لأن القلب لا سلطان لأحد من الناس عليه، حتى يستطيع منع صاحبه من مقت المنكر وكرهه. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " .. فإن لم يستطع فيقلبه، وذلك (أي التغيير بالقلب) أضعف الإيمان ". وفي حديث ابن مسعود: " وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " (22) أي أن الذي يرى المنكر فلا يتحرك قلبه ببغض ذلك المنكر والامتناع له، ليس في قلبه إيمان البتة، فضلا عما يرى المنكر فيسر به ويفرح له - عيادا بالله تعالى. *وها هنا أمر جدير بالوقوف عنده، وهو (التلميح والتصريح في الإنكار)، فإن الإسلام دعا إلى التدرج في هذا الأمر، بحيث يكتفي المنكر بالتلميح إن كان التلميح مجديا، فإن لم يغن شيئا، انتقل المنكر إلى التصريح. فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام، يقول عندما يرى منكرا: " ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟ " (23)، لأن هذا التلميح العام كان يكفي في كثير من الأحيان لرد صاحب المنكر عن منكره. لكنه، صلى الله عليه وسلم كان إذا وجد أن الموقف يحتاج إلى التصريح فإنه يصرح، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدقة. فقيل: منع ابن جميل...، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " ما ينقم ابن جميل إلا أنه فقيرا فأعناه الله ورسوله " (24) هكذا صرح النبي صلى الله عليه وسلم مرة بأصحابه، فلما انصرف من صلاته قال " يا فلان ألا تحسن صلاتك! إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي " (25) والشواهد على سلوكه صلى الله عليه وسلم مسلك التلميح إذا أغنى، والتصريح إذا دعت إليه الحاجة كثيرة ومشهورة.

وعلى ذلك فإن الواجب على المسلم إذا وجد إنسانا مجاهرا بالفساد، مثل الذي يكتب المقالات المضللة، والمؤلفات الهدامة، التي تحارب الإسلام، وتطعن في أهل الاستقامة، وتشوه تاريخ الأمة المجيد، أقول: إن الواجب على المسلم أن يعلن الإنكار عليه وأن يفضحه بين الناس.

على أن هذا الترتيب في مراتب الإنكار ليس مطردا دائما، فثمة حالات يتطلب الأمر فيها المبادرة بالإنكار باليد فورا دون انتظار وليس من المعقول أن يقف المسلم على رجلين مشتبكين في قتال ومضاربة، ثم يقف ليلقي عليهما محاصرة في حقوق المسلم على أخيه، وحرمة دم المسلم وماله وعرضه! بل يجب أن يتدخل فورا لفك الخصومة بينهما متى كان ذلك ممكنا له.

وهكذا لو وقف على فاحشة أو منكر نتطلب القيام بتغييره بصفة عملية مع القول أو بدونه.

الهوامش

21 - رواه مسلم (49) و ابودود (1140) والترمذي (2173) و النسائي 8/111

22 - مسلم (50)

23 - انظر مثلا: البخاري (5750) و (717)

24 - البخاري (1399) ومسلم (983)

25 - مسلم (423)

قضية الإنكار باليد

الإنكار باليد هو المرتبة الأولى من مراتب الإنكار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ... " (26). ويكون التغيير باليد بإتلاف المنكر، إما بإحراقه، أو هدمه، أو غير ذلك.

والأصل أن الإنكار باليد مهمة الجهة التي فوض إليها ذلك، لكن هذه الجهة لا توجد أصلا في كثير من البلاد، وقد توجد ولكنها لا تقوم بعملها ومسئوليتها، وحينئذ يجوز الإنكار باليد للأفراد المصلحين في المجتمع - كما صرح بذلك أهل العلم - ولكن بأربعة شروط: أحدها: ما سبق ذكره من فقدان السلطة والجهة المسؤولة التي يفوض إليها القيام بالإنكار باليد.

ثانيها: ظهور المصلحة الراجحة على المفسدة، أما إذا ظهر للمنكر أن الإنكار باليد قد يؤدي إلى مفسدة أكبر، مثل التصيق على المصلحين الغيورين، أو انتشار المنكر واتساع دائرته، ففي هذه الحال يمنع الإنكار باليد.

ثالثها: أن يتعدر تغيير ذلك المنكر بغير اليد، أي أن المنكر حاول التغيير بلسانه فلم يستطع، فله حينذاك أن يغير بيده.

رابعها: - وهو شرط مهم - مراجعة العلماء في ذلك، فإن بعض الشباب بسبب ما أعطاهم الله من الحيوية والغيرة والتوقد والقوة، إذا رأى أحدهم منكراً فار الدم في عروقه، ولجأ إلى التغيير بيده بدون أن يراجع أهل العلم العاملين الذين يعرف عنهم أنهم - بلا ريب - مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة والإصلاح.

ومراجعة أولئك العلماء تنطوي على مصالح عديدة:

المصلحة الأولى: التيقن من أن نفع هذا الإنكار أكبر من ضرره. ذلك أن نظر الغيور المنفعل قد يكون قاصراً، لكن العالم قد يكون أبعد نظراً.

المصلحة الثانية: أن الذي ينكر باليد قد يتعرض لأذى في نفسه، أو أهله، أو ماله، أو وظيفته، أو نحو ذلك، فيحتاج حينئذ إلى وقوف أهل العلم معه، فإذا كان يصدر عنهم فهذا يضمن له مساندتهم له.

المصلحة الثالثة: أن هذا يدعم أهل العلم، ويقوي مكانتهم، وبضاعف تأثيرهم في تغيير المنكرات، فإن من أهم دعائم إنكار المنكرات وجود العالم الذي يلتفت الناس حوله، فيكتسب بذلك منعة وقوة تمكنه من الإنكار، وتجعل كلمته مسموعة، وصوته مؤثراً. فإذا توافرت هذه الشروط، وحرص الأفراد على مراعاة هذا الفقه، أتى الإنكار باليد ثماره، مع السلامة من المحاذير والسلبيات.

أما التعجل والاستجابة لانفعالات النفس غير المنضبطة والاندفاع وراء العواطف المجردة، فهذا لا يثمر إلا الفشل للمهمة العامة التي نذر المصلح نفسه لها، إضافة إلى الفشل الفردي للشخص ذاته بأن يؤول أمره غالباً إلى نوع من القنوط أو الإحباط أو الاستيناس وترك العمل، والله المستعان.

الهوامش

26 - انظر تخريجه ص: 46

وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الوسائل كثيرة، لا تنحصر في مجال أو نمط معين، ومتى ما كان قلب المرء اهتماماً بأمير الدين، وحرقة للإسلام، وحرص على مستوى الأمة، فإن هذا الشعور يدفعه إلى ابتكار وسائل مختلفة يستعين بها على إقامة هذه الشعيرة. وقد قيل: (الحاجة أم الاختراع). لكن هذه الوسائل يجب أن يتحقق فيها شرطان:

1 - أن تكون مباحة، فلا يجوز أن يستخدم المنكر وسيلة محرمة ليزيل بها المنكر، فإن النجاسة لا تغسل بالنجاسة.

2 - أن تؤدي المقصود، بحيث يتم بها إزالة المنكر، وتحقق المعروف، وعلى ذلك فإذا جزم بأنها تؤدي الغرض، أو غلب على طنه ذلك كان عليه أن يتوسل بها إلى تحقيق المقصود.

ومن أبرز أمثلة الوسائل التي ينبغي استعمالها في مجال الأمر والنهي:

1 - الكلمة الهادفة:

سواء كانت تلك الكلمة محاضرة، أو درساً أو خطبة، أو موعظة بعد الصلاة، أو ما شابه ذلك، فمجلا الكلمة واسعة جداً.

وها هنا أمر جدير بالتنبيه، وهو أسلوب الكلمة، إذ لا بد أن يكون مناسباً، فإعراى مثلاً ألا تكون الكلمة ضربة في وجه صاحب المنكر، تصفحه بها دون مقدمات ولا تمهيدات.

خذ على سبيل المثال: المنكرات الظاهرة المنتشرة بين الناس، كالتدخين وإسبال الثياب وحلق اللحي ... الخ.

إن هجوم الإنسان على مراده مباشرة قد يؤدي إلى نتيجة عكسية، وقد يخرج الناس من جراء ذلك بانطباع لا يخدم قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لكن لو أنك بدأت حديثك بقضية أكبر من هذه بقضية التشبه بالمشركين، ونهي الإسلام عن ذلك، وعظم خطورته على دين المرء، وذكرت الأدلة الشرعية، والأمثلة الواقعة لذلك، وسقت طرفاً من كلام المؤرخين، ومن كلام الباحثين المعاصرين، وتدرجت في عرض القضية، حتى تصل إلى ضرب بعض الأمثلة للتشبه بالمشركين من الواقع، وتأتي بقضية

حلق اللحية مثلاً لذلك، وتدعم كلامك عنها بما ورد من نصوص في الأمر بإعفاء اللحي، كقوله صلى الله عليه وسلم "وفروا اللحي" (27) ومضيت في بسط القضية وعرضها على هذه الشاكلة، فإنك إن وفقت في ذلك العرض اللبق، فإن الحاضرين المستمعين إليك -

وإن كانوا حليقي اللحي - سوف يتقبلون النصيحة، وتدخل قلوبهم.

وقد وقع لي مرة أن زرت مدرسة في إحدى مناطق هذه المملكة، فرأيت في المدرسة كثيراً من المنكرات، فأليت على نفسي أن أقول شيئاً عن ذلك، وفعلاً تحدثت إليهم، فبدأت بكلام عام عن الشباب ومشكلاتهم، وخطط الأعداء الغربيين للقضاء على الشباب، حتى ارتاح الحاضرون إلى هذا الكلام، وأحسوا أنه كلام يحتاجون إلي مثله، وربما لم يسمعه

قبلاً، لأن المنطقة نائية.

بعد هذا تكلمت عن الاعتزاز بالإسلام، وأن المسلم هو الأعلى العزيز العالي لا يقلد الكافر النازل، كما أن الكبير لا يقلد الصغير، والمدرس لا يقلد الطالب، وإنما الذي يحدث هو

عكس ذلك. فالصغير يقلد الكبير، والطالب يقلد أستاذه، والمغلوب يقلد المنتصر.

ثم انتقلت إلى الحديث عن التشبه بالمشركين، وما ورد فيه من نصوص، ثم أدخلت كل

المنكرات التي رأيتها في المدرسة في باب التشبه، وتحدثت عنها. فلما انتهيت خرج معي أحد المدرسين، وحدثني قائلاً: جزاك الله خيراً. إنك أنكرت علينا ولم نجد في نفوسنا من هذا الإنكار شيئاً، لكن فلانا من الناس-ذكر شخصاً-على الرغم من صغر سنه، وقله خبرته، يصعد المنبر، ويتكلم بكلمات مبتذلة عن بعض هذه المنكرات، تكون سبباً في نفرة الناس وعزوفهم عن المتحدث وخطبته، وربما أدى إلى إصرارهم على ما هم عليه، واستمرارهم لما يفعلون.

وقد يستفتح المتحدث كلمته بمقدمة عن المقاصد العامة للشريعة، وحفظ الإسلام للدين، وللنفس، والعرض والمال، والنسب والعقل، ليسترسل بعد ذلك في أمثلة معنية مقصودة مما حرمه الإسلام أجزل وأمتن وأوقع في النفس، وأدعي للقبول. هذا إلى أن الداعي ليس يسوع له أن يجعل كل حديثه نقداً وتخطئة للآخرين وحشداً لمسائرتهم وذنوبهم، إذ كأنهم يفهمون من هذا أنه لا يرى فيهم حسنة تستحق الإشادة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم للأشج، أشج عبد القيس: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة" (28)

وأثنى عليه الصلاة والسلام على جماعات من أصحابه، كخالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة وسواهم كثير.

فالثناء على الإنسان-فرداً أو جماعة-بما هو فيه لغرض شرعي صحيح أمر لا غبار عليه. فلا بأس أن يزين الداعية نصحه بثناء جميل مقنن على حسنات لدى المنصوح-فرداً أو جماعة-يكون في ضمنها دعوة له إلى نشيدان الكمال البشري الممكن له. ولا بأس أن يتعاهددهم بالنصح بين حين وآخر، لتلا يملوا ويساموا، ولا يحشدهم لهم كل ما ينتقده عليهم في قعدة واحدة.

2 - الكتاب والكتيب:

وذلك بالكتابة والتأليف في إنكار شيء من المنكرات، أو بالإسهام في توزيع ما كتب في ذلك، فكل بحسب طاقته: فإن كنت طالب علم تستطيع الكتابة في موضع ما، فاكتب وأنكر المنكر، وبين للناس الخير من الشر، واسع في طباعة ما كتبت ونشره. وإن لم تستطع ذلك فاسهم في توزيع الكتاب عن طريق بذل المال. فإن لم يكن عندك مال، فشارك في عملية توزيع الكتاب بجهدك البدني، في المؤسسات، والمدارس، والمساجد، والدوائر، وغيرها.

وهكذا يقوم كل شخص بمسئوليته في هذا المجال بحسب قدراته وإمكاناته، ولو أن كل مسلم غيور قام بواجبه-أو بعضه-لكان معنى ذلك أن الدعاية يملكون أعظم مؤسسات التوزيع في العالم.. ولكانت الدعوة الإسلامية تملك من المراسلين جموعاً غفيرة لا تملكها دعوة أخرى في الدنيا كلها.

3 - النشرة الصغيرة: وهي تسمى المطوية، وتتكون من بضعة صفحات تعالج موضوعاً معيناً، ومن ميزاتها أن من السهل أن يقرأها المرء على عجلة، فحسن أن يستفيد الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من هذه الوسيلة، ويشارك في توزيعها ونشرها لتوعية الناس.

4 - الشريط: سواء بإعداد شريط يحتوي على معالجة لبعض المنكرات، أو بالإسهام في نشر هذا النوع من الأشرطة بقدر الإمكان، خاصة أن أكثر البيوت اليوم-بل كلها لا تخلو من أجهزة تسجيل، كما أن بإمكان المصلح أن ينسخ من الشريط نسخاً عديدة، ويوزعها، ليستفيد الناس مما فيها من الخير، وأقل ذلك أن يدفع الشريط بعد استماعه إلى آخر يسمعه ويستفيد منه، إن طلب المدرسة الابتدائية يستطيع أن يوفر من قيمة الشاي الذي يشتريه من المقصف المدرسي ما يشتري به كتيباً أو شريطاً في الشهر أو في الأسبوع.

5 - الجريدة الجديدة واسعة الانتشار، فقد يطبع من بعضها مائة ألف نسخة، أو مائتا ألف، في اليوم الواحد، فينبغي الكتابة فيها لإنكار بعض المنكرات، خاصة إذا كان المنكر قد انتشر في الجريدة نفسها، فلا يكفي أن تذكر أن هذا منكر في مجلس يحتوي على فئة قليلة من الناس، والجريدة قد قرأها مائة ألف أو يزيدون، وإنما عليك أن تكتب مقالة، وتراعي فيها قواعد النشر، وتبعث بها إلى الجريدة لكي تنشر ويستفيد منها أكبر عدد ممكن من الناس.

6 - الهاتف: فبالإمكان أن تتصل بصاحب المنكر، وتأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، أو تتصل بمن يستطيع تغيير المنكر، من علماء، ومسؤولين، ووجهاء. رأيت حين تعلن جهة عن عمل لا يرضي الله، فتنهال عليها الاتصالات الهاتفية من أطراف شتى، ألا يكون ذلك مؤثراً في دفع المنكر!

أذكر أنني اتصلت مرة بمؤسسة أعلنت عن حفل مختلط في إحدى الدول المجاورة، فعرفت المسؤول بنفسه، ومكان اتصاله، وكلمته عن الإعلان المذكور، فاعتذر، وقال: إن هذا الإعلان نزل بطريق الخطأ، وقد أعلننا في الجريدة في اليوم التالي نقداً لهذا الإعلان ربما لم يتسن لك الاطلاع عليه، وإن الناس قد اتصلوا بنا من كل مكان، حتى كبار العلماء والمشايخ اتصلوا واستنكروا الأمر، وقد بلغناهم بحقيقة الأمر، ونحن نشكركم .. إلخ.

والشاهد من ذلك أننا حين نتصل على صاحب منكر، فإننا بذلك نفهم الناس ماذا يريد المجتمع.

والهاتف-من خلال التجربة-وسيلة فعالة جداً، ومؤثره في هذا المجال، على أنها لا تكلف جهداً أو عناءً، فكل ما في الأمر مبلغ من المال مقابل هذه المكالمة يكون في سبيل الله ولا يضيع، وبمجرد رفع السماعة وإدارة قرص الهاتف تجد أنك إنسان إيجابي ومؤثر.

7- الرسالة الشخصية: وما أبلغ أثر الرسالة الشخصية على قارئها متى كتبت بأسلوب لبق مهذب يخاطب مكامن العاطفة في النفس البشرية.

إنها حديث مباشر هادئ، يعطي الآخر فرصة التفكير والمراجعة والتصحيح، وهو بعيد عن الكلمات التي قد يزل بها اللسان من دون قصد إذ إن الكتابة تمنح الداعي فرصة التفكير فيما يكتب وبسطر.

وحتى لو خاطبت قطعاً عربياً من الناس، كباعة الأغاني، أو متعاطي الربا، أو مروجي الأفلام الهابطة، أو أصحاب المحلات التجارية، أو أي طبقة من طبقات المجتمع. لو خاطبتهم برسالة مطبوعة على جهاز "الكمبيوتر" تسجل على كل نسخة اسم المحل الذي توجه إليه لكان لها وقع خاص مؤثر، أعظم من وقع الكتاب أو الشريط الذي لا يخاطب المعنى مباشرة.

8- مقاطعة صاحب المنكر: بحيث يتم الامتناع عن معاملة المكان أو المؤسسة التي يوجد فيها المنكر.

فيوت الربا التي تجاهر بحرب الله-تعالى-وحرب رسوله صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله). {سورة البقرة، الآيتان: 278، 279}. هذه البيوت من أين نشيت وترعرعت وقويت؟! أليس من أموال المسلمين!!

والمجلة الماجنة، ما الذي ضمن لها الاستمرار والرواج والثراء، حتى أصبحت لا تخرج إلا في ورق صقيل وطباعة فاخرة؟! أليس أموال المسلمين!!

وكل مؤسسات الفساد والانحراف والرذيلة إنما كفل لها الذبوع والبقاء إقبال الناس عليها، وعلى ما تنبه من سموم، وعمهم لها بأموالهم، من حيث يشعرون أو لا يشعرون. ولو أن المسلمين قاطعوها، لانتهدت تلقائياً، ولوئدت في مهدها. لكن الواقع المر أن أحد المسلمين أجراها مقراً، والآخر توظف فيها، والثالث تعامل معها، والرابع دعا إليها.. وهكذا حتى صار المجتمع-من حيث يشعر أو لا يشعر-ينفخ روح الحيوية والقوة في مثل هذه المؤسسات، ثم يعود الناس بمتعضون منها ويستأثرون، ولا نقول لهم إلا: "بداك أوكتا وفوك نفخ".

*وعلى سبيل المثال لو أن أحدنا دخل على صاحب تموينات يبيع فيها الدخان والمجلات الفاسدة، فقال له: يا أخي لماذا تبيع هذه المحرمات؟ فسيقول: لو لم أبعها لما عاملني الزبائن. فليرد عليه قائلاً: وهل أنا إلا من الزبائن، إنني سأقاطع تمويناتكم إلا أن تطهروها من هذه المحرمات. ثم يأتي ثان وثالث ورابع.. ويكون لهم الموقف نفسه، وبعد ذلك ستجد أن الرجل أخلى محله من تلك المنكرات، فإذا جاءه شخص يبحث عن شيء منها، قال له: إن الزبائن رفضوا أن يشتروا مني وعندني هذه الأشياء.

وهكذا تؤدي هذه الوسيلة مفعولها إذا تعاون أهل الخير، وأثبتوا وجودهم، خاصة أن الناس لا يزال فيهم خير كثير، مما يجعل إمكان استجابتهم كبيراً بإذن الله تعالى.

9- التشهير: إذا لزم الأمر، ودعا الموقف إلى اللجوء إلى التشهير بالمنكر وصاحبه، فلا بأس، كما تقدم معنا ذكر تصريح الرسول صلى الله عليه وسلم باسم ابن جميل وما فعل من منكر.

والتشهير يأخذ سوراً شتى، فليس بالضرورة أن يكون التشهير إعلاناً على المنبر، بل له أساليب مختلفة، ولنضرب لذلك مثلين، أحدهما من القديم، والآخر من الحديث.

المثال الأول: كان لأحد المترفين في بغداد بيت تعلو منه أصوات الغناء والطرب والمزامير واللهو، فطرق عليه بعض الصالحين الباب، فلم يستجب، وحاولوا ثانية وثالثة، فلم يستجب لهم. وكان في بغداد قارئ بكاء مؤثر حسن الصوت، فجاء في أحد الأيام وكان الناس مزدحمين في الشوارع-فجلس على عتبة هذا البيت الذي تعلو منه أصوات المنكرات، وأخذ بصوته العذب الجهوري يرتل القرآن، فاجتمع الناس إليه، وامتلأ الشارع بهم، وعلت أصواتهم بالبكاء والنشيج، حتى سمعهم الذين يدخل الدار، فمخرج صاحبها وأخرج معه الطبول وسائر آلات اللهو، وسلمها للشيخ ليكسرها بيديه.

وعلى هذه الشاكلة استطاع هذا القارئ أن يغير المنكر عن طريق التشهير، بدون أن يتكلف، وبدون أن يجافي الحكمة.

المثال الثاني: ما فعله بعض الدعاة المعاصرين حين علم عن إقامة حفل غنائي فيه لهو وطرب ومنكرات، وعجز عن إيقاف ذلك المنكر، فما كان منه إلا أن أخبر الصالحين، بأنه سوف يقيم محاضرة في مكان مجاور لمكان المنكر، وفعلاً أقام المحاضرة، وأخذ يتكلم بكلام مؤثر جيد فانسحب الناس من مكان الحفل إلى المحاضرة في مكان مجاور لمكان المنكر، وفعلاً أقام المحاضرة، وأخذ يتكلم بكلام مؤثر جيد، فانسحب الناس من مكان الحفل إلى المحاضرة، وأوقف الحفل الغنائي

وكذا أوصد الباب في وجه المنكر وأهله بطريقة هادئة، لا مأخذ فيها على المصلح. إن هذه الوسائل ليست سوى أمثلة أو نماذج لوسائل أخرى كثيرة، يمكن أن ينتكرها الغيورون لإزالة المنكرات، وتغييرها وحماية المجتمع منها، وسبب المصلح أمامه مجالاً رحباً للتفكير في تجديد الوسائل وتنويعها متى كان جاداً منفعلاً لقضية الإسلام، متحلياً

بالعلم الصحيح الذي يفتح أمامه آفاق المجهول.

الهوامش

28-28 - رواه مسلم (18)

من الذي يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

لا شك أن جمهور الأمة إذا رأوا المنكرات غضبوا، وغاروا، وفار الدم في عروقهم، فإن وجدوا المجال الطبيعي للإنكار، اكتفوا به ولم يزيدوا عليه. والمجال الطبيعي في نظري أحد قناتين

القناة الأولى: الجهات الرسمية المسولة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
القناة الثانية: أن يسير الناس-إذا لم يجدوا القناة الأولى-خلف العلماء الذين يتحملون مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإذا لم يجد الناس إحدى هاتين القناتين فإنهم حينئذ يعتمدون على اجتهادهم، والاجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، وهم معذورون في ذلك، لأن كف اليد والسكوت عن المنكر بالكلية أمر ينافي طبيعة هذه الأمة المجاهدة، وبصدام المبادئ التي تنطلق منها في حياتها، وضرره قد يكون أحياناً أعظم من الضرر الناجم عن الإنكار غير المتأنى الذي يحدث من عامة الناس حين لا يجدون القناة السليمة الملائمة للإنكار والتغيير.
وأكثر الناس يشعرون بمفسدة الإنكار المتعجل وضرره ولكنهم لا يشعرون بمفسدة السكوت على المنكرات.

وكم رأينا من رافع عقيرته بثلث إنكار يرى فيه نوعاً من التسرع وعدم الانضباط، لكنه لا يتحدث بالحماس نفسه، بل ربما لا يتحدث مطلقاً عن أولئك القاعدين الذين استمرؤوا المنكر ورضوا به، وسكنوا عليه، مع أن خطاهم أعظم وأطم، بل ربما يكون تسرع الآخرين ناتجاً أصلاً- عن خطأ السكوت والإغماض.

ومتى وجد المنكرون بعلم وحكمة وصدق قلت احتمالات حدوث إنكار متسرع غير متزن. ومتى فقد الإنكار الشرعي الصحيح فعلى المجتمع- بعلمته وعلمائه ودعايته- أن يكون مستعداً لاحتمالات حدوث إنكار غير شرعي، والسنة جارية لا تحابي أحداً ولا تجامله.

الهوامش

26 - انظر تخريجه ص: 46

آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يتعامل مع نفوس بشرية، فلذلك لا بد أن يتحلى بصفات معينة، تيسر له المضي في هذا الطريق، وتحميه من الشطط- بإذن الله. وأهم تلك الصفات:

1- العلم:

إن لا بد أن يعلم أن هذا منكر، لينكره، وأن ذلك معروف، ليأمر به، وأن يعرف وجه كونه هذا منكراً وهذا معروفاً، وأن يعلم الطريقة المثلى للأمر والنهي.
وأما الذي ينكر عن جهل فقد يفسد أكثر مما يصلح، وإنك لترى كثيراً من الجهال ينكرون ما لم يلقوه، وإن كان معروفاً في الحقيقة، ومن أمثلة ذلك أني صليت الفجر يوماً من الأيام إلى جوار أحد العوام، فبعد أن تنفقت راتبة الفجر، وتناولت المصحف لأقرأ شيئاً من القرآن، قال لي: لا، ما يصلح هذا، لا بد إذا انتهيت من النافلة أن تسلم على من هو على يمينك، ثم تسلم على الذي عن يسارك، ثم ترفع يديك وتدعو بما تريد، ثم تقرأ القرآن. فقلت له: سبحان الله! هل تعلم دليلاً على مشروعية سلام الإنسيان بعد النافلة على من هو على يمينه وعلى شماله؟ فقال لا والله. قلت: هل تعلم دليلاً على مشروعية واستحباب رفع اليدين بعد النافلة؟ قال: لا، ما أعلم. فقلت: لماذا تنكر إذن؟ فقال: علمني جزاك الله خيراً. فأخبرته أن هذه الأمور ليست سنة ينكر على تاركها، بل هي في هذا الموضوع بالذات-بعد الصلاة فريضة أو نافلة-غير مشروعة، ومن أهل العلم من حكم ببدعيتهما، وأما أصل السلام فمشروع، وأصل رفع اليدين بالدعاء مشروع، ولكن التزامه بعد الصلوات النوافل هو محل النظر.

إذن فلا بد أن يكون المنكر عالماً على الأقل بما ينكر وبما يأمر به.

2- الرفق والحلم لا بد للأمر الناهي أن يروض نفسه على الرفق والحلم، فإن التشنج والانفعال قد يسبب إخفاقاً في إنكار المنكر، بل قد يؤدي إلى مضاعفته واتساع دائرته. ولا ريب أن كثيراً من المنكرات إذا رآها الغيور فإنه يغضب ويشتد، مهما كان فيه من الانضباط، فليحرص على إجماع نفسه بلجام الرفق والحلم، ومراعاة المصالح.

كما أن المنكر قد يجد من المنكر عليه فطائفة أو رداً جارحاً، فلا بد أن يقابلها بصدر رحب، وبدون انفعال، وأن يرد عليه بابتسامة لطيفة، أو بطريقة تمتص الغضب، وتغوث الفرصة على صاحب المنكر أن يستغفر المنكر.

3- العدل:

أي أن يكون المنكر عادلاً، فلا يجوز على صاحب المنكر، فينسى فضائله، ويضخم سيئته، وإنما يشهد له بحسناته وفضائله ويذكرها له، فيأتي مثلاً إليه ويقول له: يا أخي أنت رجل فيك خير كثير، أشهد أنك تحافظ على صلاة الجماعة، ولديك من الفضائل كيت وكيت، ولكن:

ولم أر في عيوب الناس عيباً _____ كنقص القادرين على التمام
فلينك يا أخي تترك المنكر الفلان، حتى تزداد خيراً وفضلاً، وبعداً عن السيئات.
وبهذا الأسلوب العادل تكون فرصة القبول والاستجابة أعظم، أما إذا تجاهل المنكر
حسنات المنكر عليه، وأهدرها جميعاً، فإن هذا يكون مدعاة للنفور وعدم القبول.
والعدل كذلك مطلوب في قول الحق ولو على المنكر نفسه بما لو طالت القضية، ووصلت
إلى المحكمة، ورفعت إلى القضاء، فلينتبه لذلك.
4- الحكمة:

وقضية الحكمة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشكل على كثير من الناس،
سواء من النكربين، أو المنكر عليهم. فبعض الناس يظن أن الحكمة تعني ترك الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، فلو قلت له: يا أخي بارك الله فيك قم صل، لقال لك:
سأقوم، ولكن تكلم معي بحكمة. هكذا يقول: مع أنك لم ترد على أن وجهت إليه نداءً أخوياً،
وحثته على أداء فريضة. وفي مقابل ذلك قد لا يتحري بعض المسلمين الحكمة تحرياً
كافياً، فيكون موقفهم من المنكر غير سليم، إن سلباً وإن إيجاباً.
والحق أن الحكمة في كل شيء بحسبه، كما قال الشاعر:
ووضع الندى في موضع السيف بالعلام مضر _____ كوضع السيف في موضع الندى
فمن الحكمة أن تستخدم اللين في موضعه، كما أن من الحكمة أن تستخدم الشدة في
موضعها.

وللتمثيل لهذه القضية أذكر القصة التي في الصحيح، قصة الغلام الذي من بني إسرائيل،
وهي طويلة، لكن الشاهد منها ما جاء في آخرها من أن الغلام قال للملك بعد أن عجز
الملك عن قتله:

هل تريد أن تعرف كيف تقتلني؟ قال: نعم. قال: اصلبني إلى جذع شجرة، ثم اجمع الناس
كلهم، ثم خذ سهماً وقل: بسم الله رب الغلام وأرسل السهم فسيفتلني. ففعل الملك
ذلك، فقال الناس كلهم بصوت واحد: أمنا برب الغلام. أمنا برب الغلام(29).
هكذا ضحى الغلام بحياته، لأن الحكمة -بلا ريب- تكمن في هذا التصرف، فإن موت ذلك
الفرد ترتب عليه حياة ألوف مؤلفة من الناس، فبعد أن كانوا أمواتاً صرعى للكفر، أصبحوا
أحياء بالإيمان بالله تعالى.

وقد لا يستطيع المرء أن يقدر موطن الحكمة في معالجة بعض القضايا، فينبغي له حينئذ
أن يستشير غيره، وأن يستشير برأيه، ليكمل النقص الذي قصر به عن إدراك موضع الحكمة
والموقف السليم. وقد قيل: الناس ثلاثة: رجل كامل-أي الكمال النسبي-وهو الذي له عقل
ويستشير، ونصف رجل، وهو الذي له عقل لكنه لا يستشير، والثالث لا شيء، وهو الذي لا
عقل له، ولا يستشير.

فاعمل على أن تكون الأول، فإن لم تبلغ ذلك، فكن الثاني على الأقل، وإياك أن تكون
الثالث.

5 - الصبر:

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معرض للأذى، فلا يليق أن ينزعج ويجزع، ويترك
مهمته، أو يتبرم بها، ولذلك قال لقمان لابنه وهو يعظه: (يا بني أقم الصلاة وأمر
بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور). (سورة لقمان،
الآية:17).

ذلك أن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مفروضاً بالورود والرياحين، بل هو
مليء بالأشواك والصخور والمصاعب الحمة، فمن لم يتدبر بالصبر خليق به أن يستطيل
الطريق، ويستثقل العمل، فيتجلى عن المهمة الربانية الكريمة التي انتدب نفسه لها.
عجيب أمر بعضنا! يقول: عندي أخ أو زميل أو قريب لا يصلي أو يشرب الخمر أو .. أو .. ، فإذا
قيل له: انصحه واجتهد في نصحه، قال: عجزت عنه، أو قال: ما فيه فائدة! سبحان الله!!
أين ذهب (فليت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً). {سورة العنكبوت، الآية:14}. عن عقلك؟
أين الصبر الجميل؟ أين طول النفس؟ أين دأب الدعاة وإصرارهم؟
أمن مرة أو مرتين أو عشر مرات.. تقول: عجزت.. أو لا فائدة؟ ربما أن الكلمة التي جعل
الله نجاة هذا العاصي بسببها لم تصل إلى أذنه بعد.. وربما تبذر-أنت البذرة، وبأني غيرك
فيسقيها فتنبت وثمر، لكن إياك أن تكون كالكسعي الذي يضرب به المثل في الندامة،
حين رمى بسهامه ليلاً فظن أنها لم تصب فكسر القوس، فلما أصبح وجدها كلها قد
أصاب الغرض فاعتم لكسر القوس عما لا يوصف.. فاحذر أن تكونه! إن للقلوب إقبالاً
وإدباراً، وللنفوس فتامة وإشراقاً، ومن المصلحة أن تتعاهد المدعو وقت إقباله وارتياحه
بالكلمات الطيبات، وتهاديه وتلاطفه، وتحتال للوصول إلى قلبه بكل حيلة لا تدم، "ولأن
يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم" (30)

الهُوَامِش

29 - مسلم (3005)

30 - البخاري (3973)

قضية المصلحة والمفسدة

المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو تحصيل المصالح ودرء المفسدات، بل
إنما بعث الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام من أجل جلب المصالح وتكميلها، وتقليل

المفاسد وتعطيلها. ولهذا إذا علم المسلم أن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر سيترتب عليه مفسدة في موقف من المواقف، فإنه يمنع من الأمر والنهي في ذلك الموضع. ومما يروى في هذا الباب أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله خرج مع بعض تلاميذه من دمشق، وفي طريقهم مروا ببعض التتر وهم يشربون الخمر، فهم بعض التلاميذ بالإنكار عليهم، فقال شيخ الإسلام: دعوهم وما هم فيه. فقالوا: نتركهم رحمك الله على هذا المنكر؟ قال: نعم، إن هؤلاء القوم لو أفاقوا من سكرهم لدخلوا دمشق، فهتكوا الأعراس، ونهبوا الأموال، وقتلوا الرجال. ولا يكاد يوجد في الدنيا مصالح محضة، ولا مفاسد محضة، فالقضية قضية موازنة، فإن كانت المصلحة أرجح حصلت، وإذا كانت المفسدة أكبر دفعت. وأبدأ بالمنكر الكبير قبل الصغير، ودع الإنكار إذا ترتب على إنكارك منكر أعظم منه. وهذا هو ما يوافق مقتضى الشرع والعقل، فإن مقتضاهما هو تحصيل خير الخيرين، ودفع شر الشرين.

• الإسرار والإعلان بالإنكار: ومما يتعلق بالمصلحة والمفسدة مسألة الإسرار والإعلان بالإنكار، فإن سلوك أحد السبيلين مرتبط بقضية المصلحة والمفسدة، فقد تكون المصلحة في إعلان الإنكار، وقد تكون في الإسرار به، فإذا كان صاحب المنكر معلناً مجاهراً فالمصلحة في الجهر بالإنكار عليه، وإذا كان المنكر شخصياً، أو خشي أن تأخذ صاحب المنكر العزة بالإثم، أو خيف أن يترتب على الإعلان بالإنكار منكر أشد، فالمصلحة في الإسرار بالإنكار. وقد ورد عن السلف-رضوان الله عنهم- قصص عديدة أنكروا فيها علانية، لأنهم رأوا المصلحة في الإعلان.

فمن ذلك ما جاء في الصحيحين من أن أبا سعيد الخدري خرج مع مروان بن الحكم إلى المصلى في يوم العيد، قال أبو سعيد: فلما أتينا المصلى، إذا منبر بناه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلى، فحبذت بنويه، فحبذني، فارتفع فخطب قبل الصلاة، فقلت له: غيرتم والله. فقال: أبا سعيد، قد ذهب ما تعلم، فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم(31)

ومرة أخرى خرج مروان إلى المصلى، وقام ليخطب قبل الصلاة، فقام إليه رجل وقال: الصلاة قبل الخطبة. فقال: قد ترك ما هنالك(32)

وهكذا أنكروا عليه علانية، لأنه معلن بالمنكر، ولأن الرجل-كما ذكر النووي(33) كان معتزاً بظهور قبيلته ولأن مروان سبق أن أنكروا عليه أبو سعيد قبل ذلك - والله أعلم - فأصر. وكم أنكروا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولعل من أصح القصص في ذلك ما رواه الشيخان أنه لما حدثت خصومة بين عمر بن الخطاب وأحد الصحابة مرة من المرات، قال أبي بن كعب لعمر: يا ابن الخطاب، لا تكونن عذاباً على أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم. ولما نهى عثمان بن عفان رضى الله عنه عن المتعة في الحج (أي جمع العمرة والحج) قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: لبيك اللهم لبيك، لبيك عمرة متمتعاً بها إلى الحج. فلما قيل له في ذلك، قال: أردت أن أبين للناس أن ما يأمرنا به عثمان مخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم(34)

وكان معاوية رضى الله عنه يستلم الأركان كلها في البيت، ولا يكتفي باستلام الركن اليماني أو الحجر الأسود، فأنكر عليه ابن عباس مع أن معاوية كان أميراً، فقال معاوية: ليس شيء من البيت مهجوراً. فقال ابن عباس: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) {سورة الأحزاب، الآية:21}. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يستلم إلا الركنين: اليماني، والحجر الأسود(35).

ودخل عائذ بن عمرو يوماً على عبيد بن زياد-وكان أميراً في العراق- فقال له: أي بني، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن شر الرعاء الحطمة"(36)، فأياك أن تكون منهم. فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: وهل كان لهم نخالة؟! إنما كانت النخالة بعدهم، وفي غيرهم(37) (يعني: في أمثالك!).

هكذا كان الأسلاف يجهرون بالإنكار ولا يسرون، عندما يرون أن المقام مقام إعلان، وأن المصلحة في ذلك.

الهوامش

31 - البخاري (913) و مسلم (889)

32 - رواه مسلم (49)

33 - انظر شرح مسلم 2/22

34 - رواه البخاري (1563)

35 - رواه البخاري (1608) و مسلم (1269) و الترمذي (858) و احمد (1/332، 372)

36 - الحطمة: العنيف في رعيته

37 - رواه مسلم (1830)

من أخطاء الناس في قضية المصلحة والمفسدة

إن جهل كثير من الناس بقاعدة الموازنة والترجيح بين المصلحة والمفسدة أوقعهم في أخطاء كبيرة، وربما لاموا غيرهم على فعل الأحسن والأكمل، وحمدوه على فعل الأقل، لضعف نظرهم، أو لإيثارهم ما يظنونه السلامة والورع، لضعف فقههم، وإلا فالورع ليس في ترك المشتبه بالمحرم أو بالمكروه فحسب، بل من الورع فعل المشتبه بالمستحب أو بالواجب أيضاً.

ومن الأخطاء التي يقع فيها بعض المتدينة والمتفهمة في زمانا ما يلي:

1- أن يدعوه إنيار السلامة-في أنفسهم-والخوف من الفتنة إلى اعتزال مواطن المنكرات والبعد عنها، مع قدرتهم على غشيانها والإنكار على أصحابها، وذلك خوفاً على أنفسهم من هذه المنكرات أن يصل إليهم شيء من رذاذها وغبارها، أو يصل إلى قلوبهم شيء من ظلمتها وسوادها.

حقاً أن أصلح الناس إذا اشتغل بالدعوة إلى الله في أوساط المشركين، أو المبتدعة، أو الفساق لا يشعر بالسعادة القلبية ولذاذة الإيمان التي قد يشعر بها غيره من المقيمين بين أهل الخير والفقهاء والعبادة، ومع ذلك فقد يكون ما يقوم به من العمل والدعوة أفضل بمراحل مما يقومون به، وقد يكون له من الفضل والخير ما ليس لهؤلاء.

وإن تحمل الضرر اليسير من أجل تحصيل مصلحة أعظم أمر مطلوب شرعاً وعقلاً وما يفقده المشتغل بالنهي عن المنكر من راحة القلب، لكثرة رؤيته للمنكرات، ثم بأثر القلب بذلك، وضعف إشراقه، يعد أمراً يسراً بالقياس إلى ما يقابله من المصلحة العظيمة التي هي هداية الناس، وإقامة الحجة عليهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتحمل فروض الكفاية عن الآخرين، بل قد تكون هذه الأمور من فروض الأعيان عليه-على حسب التفصيل السابق في حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكذلك ما يخافه على نفسه من منازعتها له إلى المنكرات، ودعوته إليها، مع ما يقابل ذلك من الإيمان والخوف من الله.

أما من يرى في نفسه ميلاً صريحاً إلى هذه المنكرات، ويجد من نفسه الهم بذلك، فهذا حري به البعد عنها، طلباً لنجاة نفسه منها.

وهذا الباب يتفاوت فيه الناس تفاوتاً كبيراً، فكثير ممن يغلب عليهم الصلاح والورع يؤثرون سلامة أنفسهم، وينسون أن السلامة تكون أيضاً بالقيام على أهل المنكرات ومصائبهم وردعهم.

2- ومن الأخطاء أيضاً ما يوجد في جماهير طلاب العلم والدعاة في هذا العصر من العزف عن تولي الأعمال التي فيها مصلحة عامة، والإعراض عن التصدر للتدريس أو التوجيه أو القيادة، زهداً في السمعة والجاه، وكراهية للشهرة.

فيقول بعضهم: لست أهلاً لهذا. هذا يقوم به غيري ممن آتاهم الله القدرة. ومن الظلم للناس أن أقوم بهذا الأمر.. إلى غير ذلك من التعليلات العليقة، والأعذار التي لو حاسب المتذرع بها نفسه حساباً حقيقياً صريحاً لأدرك أنها لا تستقيم ولا تصح، وكان هو أول الناقدين لها.

والواقع أن أكثر الناس زهداً في هذه الأمور هم أكثر الناس كفاءة وصلاحية لها-في الجملة-على ما فيهم من نقص وقصور.

وإن تخلي المخلصين الزاهدين في الشهرة والجاه عن هذه الميادين جعلها مرتعاً خصياً لكل من لا يصلح لها: من حملة المذاهب الأرضية، ومن المتظاهرين بالخير، وهم على نقيصه، ومن طلاب الشهرة الحريصين على كسب احترام الناس ومدحهم وثنائهم، وكثيراً ما تلتبس المثبطات الشيطانية المغرية بالراحة والقعود بالرغبة في معالجة الأعمال المريحة الهادئة، كالقراءة والبحث والعبادة ونحوها، وتلتبس هذه وتلك باحتقار النفس وازدراؤها، حتى لتبدو هذه الأمور جميعها لصاحبها نوعاً من الزهد السلفي الصحيح، وما هي منه في شيء.

بل المتبع الحريص على خير نفسه وخير المسلمين، هو من يبذل ما عنده من العلم والفهم والفقهاء ولو قل-دون أن يدعي ما ليس له، وهو من يزاحم أهل الضلالة والبدعة في قادة المجتمعات الإسلامية وتوجيهها، ويستفيد من الفرص المواتية في ذلك، مع حرصه الشديد على سلامة نفسه من التعلق بالدنيا والجاه والمكانة عند الناس، وجهاده لها في ذلك.

الهوامش

مهمة الشباب في ذلك المجال

يتساءل كثير من الشباب عن مهمته المطلوبة منهم في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا التساؤل يدل على بداية حسنة، ويوحى بأن الشباب وضعوا أرجلهم في الطريق بعزم ويحتاجون فقط إلى من يبصرهم بواجبهم. والحق أن الكلام عن هذه القضية يطول، ولكن سأجمل الحديث عن أهم الواجبات الملقاة على عواتق الشباب في الآتي:

1- أن بضطلع الشباب بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من منطلق شمولي، فيقوم بما قد يقوم به غيره ويزيد عليه، بحيث يؤدي مهمته في المنزل، وفي المدرسة أو العمل، وفي الحي، وفي الشارع، وفي السوق، وفي غيره، مستخدماً مختلف الوسائل،

من كلمة، وكتاب، وشريط، ومقاطعة للأماكن التي فيها فساد، وغير ذلك. أي أن يجعل الشاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر همه ووظيفته في كل أحيانه، كلما أمكنه ذلك. ولئن استطاع الشباب أن يؤديوا ذلك على الوجه المطلوب، لتختفين بلا ريب ولا تردد-كثير من المنكرات، ولتظهرون كثير من السنن المهجورات، بعون الله تعالى.

2- أن يواصل الشباب العلماء: فإن للعالم تأثيرًا كبيرًا في إزالة المنكرات، وبخاصة المنكرات الراسخة المتأصلة الضاربة بجذورها في المجتمع، التي يصعب اقتلاعها على غير العلماء، الذين لهم مكانتهم، وكلمتهم المسموعة، وركنهم الشديد.

فعلى الشباب أن يلتفتوا حول العلماء العاملين، المتبعين للسنة، وأن يبلغوهم بما يقع من منكرات، فالعالم قد يكون مشغولاً بدروسه، وارتباطاته الكثيرة، عن الوقوف على تفاصيل ما يقع في المجتمع من المنكرات. فإذا جعل الشباب من نفسه واسطة لإيصال تلك المعلومات إلى العالم-هذا على الأقل-فإن العالم يكون بذلك مطلعاً على ما يجري، ويستطيع بالتالي أن يتخذ الموقف المناسب.

ولكن على الشاب حين يبلغ العالم عن منكر أن يقدم له الإثباتات والوثائق الكافية، حتى كأنه يراه بعينه، أو يسمعه بأذنه، وألا يقتصر على مجرد الظن، لأن الأمر قد يكون على خلاف ما ظهر له.

ووسائل تزويد العلماء والدعاة وطلبة العلم بمعلومات عن المنكر وسائل عديدة، منها- على سبيل المثال لا الحصر-أن يقدم الشاب لهم ما ينشر من مقالات، أو قصائد، أو كتب، تخالف الإسلام أو تطعن فيه، أو تدعوا إلى الرذيلة، إلى غير ذلك. ومتى وجد لدى الشباب الاهتمام، والإحساس بالمسئولية، و الاحتراق لهذا الدين، فستأتي الوسائل تبعاً، بطواعية وانقياد، وأقل ما يجب في هذا أن يكون ثمة شهود عدول على حدوث المنكر وأنهم رأوه أو سمعوه بأنفسهم، لقطع دابر الأقاويل والإشاعات والظنون.

3- المشاركة في المجالات الرسمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه قضية مهمة، فإن كثيراً من الناس يلقون بالمسئولية على غيرهم، ويتصلون منها، فيتكلمون مثلاً عن جهاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقولون: إنه لم يقم بواجبه، وقد يقول بعضهم: إن كثيراً من الموظفين فيه من كبار السن.. إلخ.

ولكن السؤال الذي يجب طرحه هو: لماذا أخي الشاب لم نقم بهذه المهمة، بدلاً من أن ننحي باللائمة على غيرنا؟! إن هذا الجهاز لو كان مدعوماً بعدد كبير من الشباب الملتزمين الواعين المدركين، لكان أقوى من أن يقف في وجهه أحد، مهما حورب، أو وضعت في طريقه العقبات.

لكن لما تخلى أبناء الأمة عن مسئوليتهم، وعزف كثير من الشباب الصالحين الجامعيين عن التوظيف في هذا الجهاز، حصلت بعض السلبات، فعلينا أن ندرك أننا مسئولون عن هذا التقصير، وأن نتداركه بقدر المستطاع.

- أن نكون عوناً للآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيقاً لقوله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى). {سورة المائدة، الآية: 2}. وصور التعاون هاهنا متعددة.

· فقد يعمل الفرد مع الأمرين بالمعروف بصفته متعاوناً معهم في هذا السبيل.

· وقد يقوم بالتبليغ عن أي منكر تقع عليه عينه، أو تسمعه أذنه، أو يعلم بوجوده بأي وسيلة.

· وقد يدعو للقائمين بهذا العمل حيث إنهم يتولون القيام بهذه المهمة المقدسة بالنيابة عنا جميعاً.

· وقد يذب عن أعراضهم من السنة الطاعنين الذين يتناولونهم بغير حق-في الغالب، وبحق-في القليل النادر.

مع أنهم يتجاهلون أخطاء الآخرين من الفئات الأخرى كافة.. وكأن من شروط رجل الحسبة أن يكون معصوماً!

· وقد يواصلهم بالزيارة في مواقع عمله فيحدثهم ويستمع إليهم، ويبينهم ما في نفسه من آراء أو ملحوظات، ويقدم روابط الود والمحبة معهم، ليشعر هؤلاء الجنود المجهولون أن المجتمع يثمن جهدهم، ويقدر سهرهم وعناءهم!

· فإن تعذر عليك هذا كله-أخي-فلا أقل من الالتزام بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأبي ذر كما جاء في البخاري: "نكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك" (38)

ولا نرضى لك بحال أن تنحاز إلى فئة المستهزئين الساخرين الذين توعدهم الله تعالى فقال: (إنا كفيناك المستهزئين). {سورة الحجر، الآية: 95}.

وقال: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم). {سورة التوبة، الآيتان: 66، 65}.

الهُوَامِش

26 - انظر تخريجه ص: 46

المرأة ومقاومة المنكر

كما أن المسلم مطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكذلك المرأة المسلمة مطالبة بالقيام بمهمتها في ذلك الباب.

ومن هنا فإن على الأخت المسلمة الملتزمة بالدين الداعية الواعية أن تدخل في المجالات

المباحة، وأن تؤدي مهمتها، وتقوم بمسئوليتها، في هذه المجالات. فينبغي أن تدخل في مجال التعليم: عن طريق الدراسة والتعلم، والتعليم، والتوجيه، والإدارة، وتحضير الدراسات العليا، وغير ذلك. في مجال الجمعيات الخيرية: مشاركة، وقيادة، وتوجيهًا، ومحاضرة، وغير ذلك. وفي مجال المناسبات العامة: نصيًا وإرشادًا، وتوعية، ودعوة إلى الله بمختلف الطرق الشرعية.

وفي مجال المباح لها من الإعلام: بالكتابة في الصحف، والمجلات، سواء كانت تلك الكتابة دعوة إلى الله، أو احتسابًا على الكتابات المضللة وردًا عليها، أو نحو ذلك. وفي مجال التأليف: بإصدار كتب موجهة إلى المرأة المسلمة، تعالج قضايا المرأة، وتزويدها وعيًا بدورها، وتنبيهها إلى ما يحاك ضدها من المؤامرات. كل هذه المجالات التي أصبح الأعداء يحاربون من خلالها الإسلام، ينبغي للمستقيمات الغيورات أن يدخلن فيها، ويحاولن التغيير في المجتمع من خلالها، لأن هذه المجالات حيادية، فإذا تولاها أهل الفساد، كان دورها تخريبياً، وإذا تولاها أهل الصلاح كان دورها إصلاحياً.

إن اكتفاء الغيورات المؤمنات بالشكوى والتوجع من المنكرات التي تحدث ليس حلاً لمشكلات الأمة، وإنما الحل أن يكون هناك خطوات عملية جادة للتأثير في الواقع، وأن يكون بين الصالحات شخصيات معروفة، لها نشاط إسلامي قوي، مجاهدة، داعية، أمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، تكتب، وتحاضر، وتدرس، وتوجه وتقوم بواجبها في مجالها المناسب.

والتفريط كل التفريط، والرزية كل الرزية، أن يطوي الصالحات على أنفسهن، ويخرجن من الساحة، ويدعن الصالات المنحرفات يدرن الدفة، ويسرن بالمجتمع إلى الهاوية. إن ثمة نساء موتورات منهزمات، يحملن فكراً تخريبياً تخريبياً، ونساء بليدات مقصرات لا يعنينهن أمر الأمة، ونساء يوجهن أزواجهن المنافقون إلى ترويج الفساد الفكري والخلفي بين الغيبات.

فأحذر الأخوات الداعيات إلى الله من أن يتركن الميدان لهؤلاء، فتتلوث البيئة بجرائم الانحراف والضللال، فيعضض بنان الندم إذ لات حين مندم، فإن أخشى ما يخشاه المصلحون اليوم هو أن يأتينا الشر من قبل المرأة، لأن أعداء الإسلام يركزون على محاولة إفساد المرأة، إذ بفسادها يكون فساد المجتمع قاطبة، كما هو مشاهد عياناً في كثير من المجتمعات.

فهل تعي المؤمنة حجم المسؤولية الملقاة على عاتقها وتنفر لمقاومة المنكر ونشر المعروف؟!

الهوامش

موقوفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

كثير من الناس-ولا سيما الشباب-يحمون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأسباب ما كان ينبغي أن تقف عائقاً في طريقهم، ولا أن تصدهم عن غايتهم، أو تقعد بهم عن أداء واجبهم، فهي أسباب وهمية أو ضعيفة أو ناتجة عن جهل، فلنستعرض أبرزها، مع بيان شيء من علاجها:

1- الخجل: فإن كثيرين - لعدم تعودهم - يعانون من الخوف والخجل والهيبة من الناس، وهذا الشعور لا يزول إلا بالممارسة العملية، فعلى المسلم أن يكسر هذا الحاجز، وأن يبدأ الطريق، وسوف يزول الخجل تدريجياً، بصورة تلقائية.

2- يقول بعض الشباب: أنا عاص، فكيف أغير المنكر وأنا كذلك؟! فنقول له: غير المنكر، وإن كنت عاصياً، فقد قال الله تعالى - عن بني إسرائيل: (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه). {سورة المائدة، الآية: 79}. مما يدل على أن فاعل المنكر مطالب بالإنكار، وهذا مذهب عامة العلماء، بل حكى بعضهم الإجماع عليه-ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ولو لم يعط في الناس من هو مذنب _____ فمن يعط العاصين بعد محمد؟! ووقوعك في معصية لا يسوغ لك الوقوع في معصية أخرى، أعني معصية السكوت عليها وعدم إنكارها.

3- وقد يقول قائل: أنا لست عاصياً، ولكن لي أختاً عاصياً، فكيف أنكر على الناس وهم يرون أخي واقعاً فيما يقتربون من الذنوب؟! ويقال له: هذا ليس بعذر، لأنك لست سلطاناً على قلب أخيك، فقد أمرته ونهيته، فلم يمتثل، ومضت تآمر غيره وتنهاه، فامض في ذلك ولا تكثر للذين يعبرونك بأخيك، فإنهم إنما يريدون أن يؤذوك، ويثبوك عن واجبك، لتتركهم في عصيانهم، مع عملهم بأنك حاولت في هداية أخيك، ولكن (إنك لا تهدي من أحببت) {سورة القصص، الآية 56}. فلا تثريب عليك وإن كان أخاك. (ولا تزرر وزر أخرى). {سورة الأنعام، الآية: 164، الإسراء، الآية 15، فاطر، الآية: 18، الزمر، الآية: 7}.

4- وربما قال آخر: كيف أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ولن يسمع مني، ولن يزول المنكر بمحاولتي التغيير، فما الداعي أن أكلف نفسي بدون نتيجة؟! وكان هذا الأخ يريد تزول المنكرات بمجرد كلمة يقولها، وهذا بدون شك-تصور غير سليم، ونظرة غير سديدة، فإن هذا التغيير الكامل التلقائي بمجرد كلمة أو جرة قلم لا يملكه حتى

الحاكم، وإنما الذي تقتضيه طبيعة الأمور أن كل شيء لا بد فيه من مراعاة التدرج، حتى يتم الوصول إلى النتيجة. والمهم هو أن يكون لدينا النية الصادقة، والعزم الأكيد، لإزالة المنكرات، والبداية الصحيحة في هذا السبيل. أما أن نطمع في أن تطهر الساعة من المنكرات في لحظة فهذا غير ممكن!! فإن للمنكر مؤيديين من المنافقين والفاسقين، وانتشارًا واسعًا في الأمة، وتواصلًا في نفوسهم. وأنت أيها الأخ المصلح حين تنكر المنكر فلا تظن- مهما كانت النتيجة ضعيفة- أنك لم تؤثر، بل قد حققت عدة مكاسب:

أولها: أنك قاومت المنكر في نفسك، لأنك مهتد بأن يصل المنكر إليك، أي أن تقع فيه فإذا أنكرته سلمت من مقارفته بإذن الله-تعالى.
ثانيها: نوال الأجر من الله تعالى على القيام بهذه الفريضة وإحياء تلك الشعيرة.
ثالثها: أنك قد تقلل من المنكر.
رابعها: أنك قد تزيله.

خامسها: أنك-على أقل تقدير-قد تمنع حدوث غيره من المنكرات، لأن الذي يراك أنكرت منكرًا واقعًا لا يستطيع أن يفرض عليك منكرًا جديدًا.
كما أن الإنكار يكون سببًا في عدم استقرار المنكرات في المجتمع، حتى تصحح كالمعروف، ذلك أن المنكر إذا نشأ عليه الصغير، وهرم عليه الكبير، ولم يوجد من ينكره، فإنه يصبح حقًا ومعروفًا عند الناس، يستغربون تركه، ويتحاضون على فعله. أما إذا وجد في المجتمع أولو بقية ينهون عن الفساد، ويهتفون في الناس بأن ذلك منكر وشي، فهذا يكفي لحماية المجتمع من استمرار المنكر، وانقلاب المفهومات، واختلال الموازين-وإن لم يستطع أولئك المصلحون تغيير المنكر، وقد يأتي من يغيره ويزيله بعدهم.

5 - وبعض الناس يخافون من الأذى والأذى لا بد منه في هذا الطريق، (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولنستمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا) {سورة آل عمران، الآية: 186}. ولهذا أمر لقمان ابنه بالصبر في ذلك فقال: (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) {سورة لقمان، الآية: 17} والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم" (39) فالأذى دليل على أن المرء-إن شاء الله- مؤمن، وأنه يتحلى بصفات المؤمنين، لأن المؤمن يتلى على قدر إيمانه.

6 - وهناك من يحجم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة أنه يخشى أن تحدث فتنة، ونقول لهذا: إن الفتنة هي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقد عاب الله-تعالى- على المنافقين أنهم تركوا الخروج مع النبي صلى الله للغزو، بحجة خوف الفتنة. (ومنهم من يقول أئذني لي ولا تغتني ألا في الفتنة سقطوا). (سورة التوبة، الآية: 49).
فيا من ترك الإنكار خوفًا من الفتنة-بزعمه-إن أمامك فتنة قائمة واقعة، وهي المنكر، فكيف تترك إزالتها خشيةً من فتنة متوقعة محتملة، قد تقع وقد لا تقع؟! وقد يكون خوف الفتنة من سوء التقدير، أو الجبن، فإن الجبان يخاف من كل شيء، حتى من ظله، ولذلك لا ينكر شيئًا، وقد قال الشاعر:

برى الجبناء أن العجز عقل _____ وتلك سجية الطبع اللئيم
الهُوَامِش

39 - رواه أحمد (2/43) و الترمذي (2507) وابن ماجه (4032)

نماذج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تضمن ما سبق من الحديث عدة نماذج حية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه نماذج أخرى، لعلنا نعي موطن القدوة والعبرة منها:

الأول: شيخ الإسلام ابن تيمية الذي استطاع أن يكسب قلوب الناس، بصدقه، ونصحه، وبذله الجهد حتى في مصالح الناس الدنيوية. فقد كان-كما ذكر الذهبي- يتعب في خدمة الناس ليلاً ونهارًا، سرا وجهارًا، بلسانه، وقلمه، وذلك ببذل جاهه في دفع الظلم، ونفع الناس، وتحصيل مصالحهم، وما شابه ذلك من وجوه الخدمة والنصح للمسلمين، بقدر ما يستطيع.

ومكانته الكبيرة في نفوس الناس جعلت له كلمة مسموعة، ولذلك كان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، على المستوى الرفيع. ومما يذكر في ذلك أنه ذهب إلى السلطان المملوكي في مصر، لما جاء التتر إلى بلاد المسلمين، وقد رأى أن سلطان مصر أبطأ في المجيء إلى الشام، فقال له، إن كنتم أعرضتم عن الشام وتركتموه، فإننا نجعل له من يحوطه ويحنيه في زمن الخوف، ويستغله في زمن الأمن، ثم تلا قول الله-تعالى-(وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم). (سورة محمد، الآية: 38). وكان مما قاله له أيضاً: إنه لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله، لوجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وملوكه، لا يسعكم إلا الخروج!! فخرج السلطان إلى الشام، وخرج معه الناس.

وكان شيخ الإسلام يخرج مع الناس في المعارك، يثبت قلوبهم بالوعظ والتذكير، حتى إنه كان يقول لهم: إنكم منصورون. فيقولون له: قل:- إن شاء الله-فيقول:-إن شاء الله-تحقيقًا، لا تعليقًا. وهكذا كان، فقد انتصر المسلمون بعون الله على التتر. وعلى هذا النحو كان رحمه الله يعيش هموم الأمة على مستوى الأفراد، وعلى المستوى الجماعي، فيؤثر في مسيرة الأمة، ويشاركها في جهادها وأفراحها وأتراحها.

الثاني: العز بن عبد السلام، المعروف بسلطان العلماء، وله عدة مواقف جلية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ذلك موقفه مع سلطان الديار المصرية، فقد خرج ذلك السلطان في يوم العيد في موكب عظيم، والشرطة مصطفون على جوانب الطريق، وحاشيته يحيطون به، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه، والعز رحمه الله يرى ذلك، فنادى السلطان قائلاً: يا أبوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر نبيح الخمر؟ فقال: أو يحدث هذا؟ فقال: نعم، في مكان كذا وكذا حانة يباع فيها الخمر. فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من عهد أبي. فهز العز بن عبد السلام رأسه وقال: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟! فأصدر السلطان أمراً بإبطال الحانة، ومنع بيع الخمر. وانتشر الخبر بين الناس. ورجع العز إلى مجلس درسه، فجاءه أحد تلاميذه يقال له (الباجي)، فسأله قائلاً: يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني رأيت في تلك العظيمة، فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه. فقال: يا سيدي! أما خفته؟ فقال: والله يا بني لقد استحضرت عظمة الله تعالى، فصار السلطان أمامي كالقط.

الثالث: المنذر بن سعيد البلوطي (سلطان الأندلس)، وله مواقف عجيبة، منها الموقف التالي:

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر كلفاً بالعمارة، وإقامة المعالم، وتشيد الدور، ومن ذلك أنه بنى مدينة الزهراء، واستفرغ جهده في تجميلها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، حتى لقد ترتب على اهتمامه بذلك الأمر وإشرافه عليه بنفسه أن تأخر عن صلاة الجمعة ثلاثة أسابيع متوالية، فلم يصلها مع المنذر بن سعيد- وكان يتولى الخطابة والقضاء- فأراد المنذر أن يعظ الخليفة، ويكسر من غروره، ويحاسبه على إنفاقه الأموال الطائلة في التشييد والعمارة، وعلى انشغاله بذلك عن الإقبال على الله.

فلما كان يوم الجمعة، وحضر الخليفة، صعد المنذر المنبر، فبدأ الخطبة بقول الله تعالى: (أتنبون بكل ربيع آية تعبتون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون. والتقوا الذي أمركم بما تعلمون. أمركم بأنعام وبنين. وجنات وعيون. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم). {سورة الشعراء، الآيات: 128-135}. واسترسل يقول: ولا تقولوا: (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين. إن هذا إلا خلق الأولين. وما نحن بمعذبين). {سورة الشعراء، الآيات: 136-138} (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً) {سورة النساء، الآية: 77}. ومضى يذم الإسراف في تشييد البناء، والعناية بالزخرف، بلهجة شديدة، ثم تلى قول الله عز وجل - (أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين لا يزال بنيانهم الذي بنو ربة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم). {سورة التوبة، الآيتان: 109، 110}

وأنى بما يشاكل هذا المعنى، من التخويف بالموت وفجاءته، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وأسهب في ذلك، وأضاف إليه ما حضره من الآيات القرآنية، والأحاديث، وأثار السلف، وأقوال الحكماء والشعراء وغير ذلك، حتى بلغ التأثير بالناس مبلغه، وضجوا بالبكاء، وكان للخليفة من ذلك نصيب كبير. إلا أنه وجد في نفسه على المنذر، وشكا إلى ولده الحكم ما لقيه من الشيخ، وقال: والله لقد تعمدي بالكلام، وقد أسرف علي، وبالغ في تقريري. وأقسم ألا يصلي وراءه مرة أخرى، وصار يصلي وراء أحمد بن مطرف خطيب جامع قرطبة.

هذه هي أقصى عقوبة كان بإمكانه أن ينزلها بالمنذر بن سعيد، لأنه يعرف له مكانته وقدره. فرحم الله أولئك العلماء العاملين، الأمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، غير خائفين في الله لومة لائم، أو جبروت حاكم.

إنهم قوم شعروا بثقل الأمانة الملقاة على عواتقهم، فشمروا لحملها. وأيقنوا بحفظ الله لهم وتأييده إياهم، فبدلوا في سبيل إظهار دينه كل ما يملكون، ونصحوا للأمة حق النصح، فلا عدمت أمثالهم الأمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
